العقائد

- الإيمان بالله
- الملائكة
- الكتب
- القرآن الكريم

obeikandl.com

obeikandl.com

الإيمان بالله

س : ما هو الدليل المقنع على وجود الله وعلى أن محمداً رسول حق من عند الله؟

ج : ١ - الدليل المقنع على وجود الله هو آثاره المشاهدة التي لا يمكن أن تكون موجودة بنفسها من غير قوة كبرى على قدرة وعلم وصفات يصدر عنها هذا الإبداع وهي قوة الله تعالى ، ومن البديهات أن كل صنعة لابد لها من صانع ، وكلما كانت الصنعة أحكم كان صانعها على أعلى مستوى من الحكمة ، وكما قال الحكماء : ليس هذا العالم مخلوقاً بالطبع أو بالعلة ، لأن مطبوع الطبيعة لا يختلف ، بل يلتزم شكلاً واحداً ، ومعلول العلة لايتخلف ، بل لابد أن يكون ملازماً لعلته وجوداً وعدماً ، حدوثاً وقدماً .

إن الإيمان بوجود الله حقيقة مقررة في فطرة الإنسان منذ خلق ، كما نص الحديث الصحيح .

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » يقول أبو هريرة راوي الحديث : اقرءوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم : ٣٠][1] .

إن الرجل البدوي حين سئل عن وجود الله نطق بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟ وأنت تعلم أن آدم عليه السلام خلق وهبط على الأرض وفي قلبه هذه الحقيقة ، ونشأت ذريته الأولى على هذا الإيمان . ولما تفرقوا في طول الأرض وعرضها شغلهم طلب العيش والمأوى عن التفكير في

---

١ - رواه البخاري ومسلم .

خالق هذا الكون ، وساقتهم فطرتهم إلى أن هناك من هو أقوى منهم ، يُسيِّرهم ، ويسيطر عليهم ، بما يرونه من كواكب ونجوم ومخلوقات شتى ، وحاولوا التقرب إليها أو التحصن ضد خطرها ، وكما يحدثنا علماء الفلسفة والأجناس البشرية ، رمزوا إلى هذه القوة الخفية بما يعبر عن عقيدتهم في شكل تمثال أو غيره ، ومن هنا جاء الرسل لتلفت أنظار الضالين إلى حقيقة الألوهية .

ومهما يكن من شيء فإن علماء العصر الحديث - على الرغم من تنكر بعضهم للدين الذي عاشوا في ظله قروناً ، وحرمهم كثيراً مما يحتمه انطلاق الفكر ونشاط الإرادة - لم يستطيعوا أن ينكروا وجود الله وراء هذه المادة التي هي وعاء علمهم وتجاربهم ، وكان أسلوبهم في البحث بعيداً عن الأسلوب الديني التقليدي الذي ثاروا عليه ، ولو شئت لأوردت لك كثيراً من أقوال كبارهم في إثبات وجود الله ، ولكني أحيلك على كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » الذي جمع فيه « جون كلوفر مونسما » الباحث الديني الاجتماعي كثيراً من شهادات علماء أمريكا المتخصصين في كل العلوم ، بما يؤكد اعتراف العلم بوجود الله .

وإن شئت دليلاً على طريقة المتكلمين وعلماء التوحيد على وجود الله أحيلك على « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده ، ولعلك توفق إلى فهم الأسلوب الموضوع للاستدلال على وجوده سبحانه .

وأعتقد أيها السائل أنك ما دمت مسلماً ومؤمناً بالتالي بوجود الله فلا تشغل نفسك بأمر لا يعني به إلا الفلاسفة والعلماء المتخصصون الذين ينفقون وقتاً كبيراً في الجدل والمناقشة . ونحن أحوج ما نكون إلى أي وقت وأي جهد يبذل في سبيل المعركة المصيرية التي يخوضها المسلمون عامة في هذه الأيام .

٢ - إن قيام سيدنا محمد ﷺ بالدعوة إلى دين جديد حقيقة تاريخية مقررة لاشك فيها ، وتلك آثارها شاهد صدق عليها . ولما جاء بالدعوة وكذبه قومه طلبوا منه ما يدل على صدقه ، بالإضافة إلى ما عرفوه عنه من صدق وأمانة ، وقد انتزع منهم هذا التصديق المبدئي بقوله « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير

عليكم أكنتم مصدقي» ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذباً فقال لهم : «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ولذلك جاء على لسان من عرضت عليه الدعوة وعرف أنه مشهور بالصدق : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

فلما أصروا على كذبهم ظلماً وعلواً وقد استيقنت أنفسهم صدقه طلبوا منه آية أي علامة تدل على صدقه في أنه رسول الله من عند الله ، وليس مدعيًّا ذلك من نفسه فجاءهم بالقرآن متحدياً إياهم به ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، بل بعشر سورٍ ، بل بسورة واحدة ، على الرغم من أنهم فرسان البلاغة والفصاحة . وقد نص على ذلك قول الله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وحيث إنهم عجزوا عن محاكاته : عُلم أنه ليس من صنعه فيكون من صنع الله وحده ، الذي جعل هذه المعجزة دليلاً على أن الرسول مبعوث من عند الله . وقد صح في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وإذا صدقنا بالقرآن معجزة صدقنا برسالة سيدنا محمد ﷺ بكل ما جاء به ، فالآيات في القرآن كثيرة تثبت رسالة جميع الرسل السابقين وإن شئت توضيحاً لهذه الحقيقة فارجع إلى «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده .

س : ما الفرق بين الرب والإله ؟

ج : الرب في اللغة هو المالك للشيء ، ويطلق على السيد المالك للعبد ، وعلى المربي ، ولا يقال «الرب» مطلقاً بغير إضافة لشيء إلا لله تعالى ، المتكفل بمصالح الخلق ، أما بالإضافة فيطلق على غير الله ، كرب الدار ورب الفرس ، ذكره الأصفهاني في «المفردات».

والإله بالتعريف اسم للمعبود بحق ، وهو الله سبحانه ، وإذا ذكر بدون التعريف «إله» كان اسماً لكل معبود ولو باطلاً .

ويقول الراغب الأصفهاني في « المفردات » الإله حقه ألا يجمع ، إذ لا معبود سواه ، لكن العرب - لاعتقادهم أن ههنا معبودات - جمعوه فقالوا : الآلهة .

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ﴾ [الأنبياء : ٤٣] ، وقال ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص : ٥] .

س : قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] فهل يفيد ظاهر الآية تعدد الآلهة؟

ج : ليس المعنى أن هناك إلهين ، واحداً في السماء وواحداً في الأرض ، لأن تعدد الآلهة ممنوع ، والإسلام دين التوحيد الخالص ، والنصوص في ذلك كثيرة ، وهو سبحانه القائل ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] والقائل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] .

وإنما المعنى في الآية الواردة في السؤال أن الألوهية ثابتة لله في السموات وفي الأرض ، أي في الكون كله .

ونفي التعدد مصحوب بالدليل وهو فساد الكون ، بسبب تنازع الآلهة ، كلٌّ يزعم أنه الأحق بالألوهية ، وحتى لو اتفقا فما هو الداعي إلى الإله الثاني المعطل عن مجال تصرف الإله الأول ، والاستدلال المنطقي موجود في كتب التوحيد .

س : يقول بعض المؤرخين إن إطلاق لفظ ابن الله على بعض الناس موجود قبل ميلاد المسيح عليه السلام فهل هذا صحيح؟

ج : جاء في كتاب «التثليث في المرآة» تأليف : كوثر نيازي وزير الإعلام والحج في باكستان سنة ١٩٧٤م أن قسطنطين هو الذي روَّج أن عيسى عليه السلام «ابن

الله » عندما اعتنق المسيحية وهو حاكم لليونان واليونان يعتقدون أن أفلاطون هو ابن الإله « أبولو » لأن خطيب أمه « باركشين » وجدها حبلى فناداه « أبولو » لاتقربها فهي حبلى بولد منى ، فصاروا يطلقون على أفلاطون « ابن الله » وقد ولد سنة ٢٩ قبل الميلاد [١] .

وكثير من اليونان من أشيع أنهم ولدوا من غير أب ، ومنهم فيثاغورس المولود سنة ٥٧٥ قبل الميلاد ، وسموه ابن الله ، ويقول : أبوة الله أطلقت بالمعنى المجازي على كثيرين منهم ، أي العباد المخلصين .

س : لماذا يتحدث الله عن نفسه بقوله « نحن » مع أنها للجمع ، فهل هناك معه إله آخر؟

ج : إن القرآن الكريم نزل من عند الله بلغة العرب التي هي لغة رسوله ﷺ ، وقد نزل في أرقى درجات البلاغة والفصاحة ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٥] .

ومما جرت به عادة العرب أن يعبر المتكلم عن نفسه بلفظ « أنا » فإذا كان معه غيره قال « نحن » كما أن لفظ « نحن » يستعمل عند تعظيم المتكلم لنفسه ، وتعظيم الإنسان لنفسه له دواع تدعو إليه ، فقد يكون ذا منصب أو جاه أو حسب أو نسب فيتحدث عن نفسه تفاخراً وتكبراً من أجل التفاخر والتكبر ، وقد يكون لإدخال الرهبة في قلوب الآخرين ، كأنه عدة أشخاص لا شخص واحد ، وقد يعبر عن نفسه بلفظ « نحن » لتعدد مآثره أو مواهبه ، كأنه عدة أشخاص في شخص واحد ، فالكثرة والتعدد بالنظر إلى الأثر لا إلى المؤثر .

وأسلوب التعظيم للمتكلم أو المخاطب موجود في اللغات الأخرى وليس قاصراً على اللغة العربية ، ويستعمل في مثل الأغراض المذكورة .

فإذا كان رب العزة يقول ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٨] فالمقام مقام امتنان بالخلق والإنعام ومقام تخويف وإرهاب

١ - من كتاب التناقض بين الدين والعلم . تأليف : درابر .

للكافرين ، يتناسب معه ضمير التعظيم الذي يعطي معنى القوة والهيبة ، وإذا كان يقول ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] فالمقام مقام الاقتدار الذي يدخل الطمأنينة على حفظ الله للقرآن الذي أنزله بقدرته وحكمته . وإذا كان يقول ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[غافر: ٥١] ففيه اطمئنان لحماية الله لرسله ونصرهم على أعدائهم ، كأنها حمايات بوسائل متعددة .

وأعتقد أن المؤمن حين يقرأ القرآن وفيه أسلوب التعظيم لله لا يتسرب إلى نفسه أي شك في وحدانيته سبحانه ، وهو جدير بكل عظمة وإجلال لا يمكن أن يكون لغيره من القدرة والإنعام ما يصرف الناس عن عبادته وحده .

س : وردت بعض النصوص التي تثبت أن لله يداً ورجلاً ، نريد بياناً للمراد منها؟

ج : وردت نصوص في الكتاب والسنة تثبت أن لله عيناً ويداً ورجلاً ، مثل قوله تعالى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾[طه : ٣٩] وقوله ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[الفتح : ١٠] وقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم « لاتزال جنهم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد . حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط » . وقوله « الحجر الأسود يمين الله تعالى في الأرض يصافح بها من شاء من خلقه »[١] ، وقوله « رأيت ربي في أحسن صورة ووضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثندوتي »[٢] أي ثديي.

وقوله في الحديث القدسي عن الله سبحانه « ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »[٣].

والعلماء إزاء هذه النصوص فريقان مع اتفاقهم على أن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، فريق يطلق عليه اسم السلف وفريق يطلق عليه اسم الخلف ، والسلف يؤمنون بدلالة هذه الألفاظ على معانيها الحقيقية الموضوعة لها في اللغة العربية ،

١- رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه .
٢- رواه الطبراني والترمذي وقال: حسن غريب .
٣- رواه البخاري .

فيثبتون لله عيناً ويداً ورجلاً ولكنها ليست كأعيننا وأيدينا وأرجلنا لاستحالة التشابه بينه وبين المخلوقات ، والخلف يؤولون هذه الألفاظ التي جاءت على أصول اللغة العربية بما فيها من حقيقة ومجاز ، فيريدون بالعيون لازمها وهو العناية والعلم ، وباليد لازمها وهو القدرة والإنعام ، وبالرجل والقدم القدرة والسرعة وزيادة الفضل والكرم .

وهذه الألفاظ من المتشابه الذي نزل به القرآن وقال عنه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران : ٧] فالسلف يقفون على ﴿ٱللَّهُ﴾ والخلف يصلون ولا يقفون : أي يعطفون ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ على لفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ أما السلف فيجعلون الواو للاستئناف لا للعطف . وفي هذين الموقفين جاءت العبارة : مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم .

س : ما معنى قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه : ٥] ؟

ج : ذكر استواء الله على العرش في عدة مواضع من القرآن الكريم ويحتاج الأمر إلى بيان المراد من العرش ، والمراد من الاستواء ، ونسبة ذلك إلى الله سبحانه ، فالعرش لفظ مشترك يطلق على أكثر من معنى فهو بمعنى سرير الملك ، قال تعالى ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل : ٤١] وقال تعالى ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف : ١٠٠] وهو بمعنى سقف البيت ، وبمعنى المُلك والسلطان .

والاستواء هو الاستقرار ، واستوى إلى السماء أي قصد ، واستوى أي استولى ، واستوى أي اعتدل ، واستوى أي علا وارتفع .

واستواء الله على العرش فيه أربعة عشر قولاً كما قال القرطبي في كتابه «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلا» والأكثر من المتقدمين والمتأخرين ينزهون الله عن الجهة والتحيز ، لأن ذلك من صفات الحوادث ، فيؤولون استواء الله على العرش بالملك والسلطان ، يقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق

وإذا كان في الاستواء على العرش علو فهو علو مكانة ومنزلة ومجد وليس علو مكان ، إن التأويل في مثل هذه الآيات المشتبهات هو مذهب الخلف ، أما السلف وهم أهل القرون الثلاثة الأولى من الهجرة فلا يؤولون ، ويثبتون الجهة لله كما نطق كتابه وأخبرت رسله ، ولم ينكر أحد منهم أنه استوى على عرشه حقيقة ، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء ، فلا يعلم حقيقته إلا الله ، يقول الإمام مالك رضي الله عنه : الاستواء معلوم -يعني في اللغة- والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة . وكذلك قالت أم سلمة رضي الله عنها ، ويقول أبو الحسن الأشعري وغيره : هو مستو على عرشه بغيرحد ولا كيف .

والخلاصة : أن السلف يتركون النصوص على ظاهرها ولا يؤولونها ، والخلف يؤولونها بما يثبت أن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، والكل متفق على تنزيه الله سبحانه عن المشابهة للحوادث[1].

س : وردت أحاديث تقول إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ليسمع دعاء التائبين والمسترزقين ، فكيف يكون هذا النزول ، وهل الله في مكان ينزل منه؟

ج : روى البخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » .

هذا الحديث من المتشابه الذي يوجد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية ، والمسلمون حياله فريقان ، فريق يطلق عليهم اسم السلف ، وفريق يطلق عليهم اسم الخلف ، فالأولون يؤمنون بأن الله سبحانه ينزل من عرشه إلى سماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وكماله ، بعيداً عن المشابهة للحوادث كما قال سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] والآخرون يصرفونها عن ظاهرها ويريدون بها

١- انظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢١٩ ، وكتابه المذكور .

لازمها ، بمعنى القرب والرحمة وسرعة الاستجابة كما يجيء في كلام العرب تعبيراً عن الرجل الكريم بأنه لا تطفأ له نار .

وعلى شاكلة ذلك كان تفسيرهم لليد والعين في قوله تعالى ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] وقوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه : ٣٩] .

ومن موقف السلف والخلف من الإيمان بالظاهر ومن التأويل كان الوقف في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فالأولون يقفون عند قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ . . .﴾ كلاماً مستأنفاً ، أو مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ والآخرون لايقفون عند قوله ﴿ٱللَّهُ﴾ وإنما يصلون به على العطف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ فالذي يعلم التأويل عند الأولين هو الله قط ، والذي يعلمه عند الآخرين الله والراسخون في العلم [1].

س : هل صحيح أن الله سبحانه يضع قدمه في جهنم ، وكيف يفهم هذا ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق : ٣٠] المفسرون فريقان في قول جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ ففريق يقول : المعنى ليس هناك مكان لزيادة أحد على من هم فيها ، فقد امتلأت ، كقول النبي ﷺ فيما روي عنه «هل ترك لنا عقيل من ربع أو منزل» يعني ما ترك . فمعنى الكلام النفي . وفريق يقول : المعنى هل هناك أحد يزاد على من فيها ، ففيها متسع لمن يلقى فيها ؟

وعلى كلا المعنيين يصح أن يُنطق الله النار فتقول هذا الكلام ، ويصح أن يراد بذلك التشبيه فقط ، يعني كأنها تقول ذلك . والمعنى الأول أصح .

ثم جاء في صحيحي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال « لاتزال جهنم يُلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى

---

١ - راجع موضوع: الرحمن على العرش استوى ص٢٧ .

بعض وتقول قَطْ قَطْ ، بعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة » وفي رواية «وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رجله يقول لها ، قَطْ قَطْ ، فهناك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض ، فلا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً » فقول « قط قط » في الرواية الأولى من جنهم ، وفي الرواية الثانية من الله .

يقول القرطبي : القدم هنا قوم يقدمهم الله إلى النار ، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار ، وكذلك الرِّجل وهو العدد الكبير من الناس وغيرهم ، ويبين هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مِقْمَعٌ ولاتابوت -وهي أدوات التعذيب - إلا وعليه اسم صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قط قط ، حسبنا حسبنا . أي اكتفينا اكتفينا . وحينئذ تنزوي جنهم على من فيها وتنطبق ، إذ لم يبق أحد ينتظر ، فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقدم .

لكن قال بعض العلماء : إن معنى وضع الله رجله أو قدمه في النار إخضاعها وإسكاتها ، حتى لاتطلب زيادة على من فيها ، كمن يريد أن يعبر عن قهره وانتصاره على عدوه فيقول : وضعته تحت قدمي ، وليس لله سبحانه قدم ولا رجل كما هو معهود للمخلوقات ، فليس كمثله شيء ، وإذا سكتت النار عن طلب المزيد بعث الله بخلقه ليسكنهم المنازل في الجنة ، وهذا دليل على سعة رحمة الله تعالى .

وخلاصة الكلام في القدم أنه من المتشابه الذي يؤمن به السلف ، فالله له قدم ورجل ويد وعين وإصبع كما ورد في القرآن والسنة ، لكن هذه الأشياء ليست كالمعهودة في المخلوقات ، أما الخلف فينفون أن لله أعضاء بالمعنى الحقيقي ، والمراد منها لازمها ، فالتعبير مجازي والمراد القوة والعناية والرعاية والعلم .

س : هل صحيح أن من حفظ أسماء الله الحسنى دخل الجنة حتى لو كان عاصياً وكم عددها ، وما الفرق بينها وبين الصفات ؟

ج : جاء في كتاب «الأذكار»[1] . أن الله سبحانه قال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف : ١٨٠] وأن النبي ﷺ قال «إن لله تسعة وتسعين اسماً «مائة إلا واحداً» من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر» ثم ذكر الأسماء .

وقال إن الحديث رواه البخاري ومسلم ، أما الأسماء فرواها الترمذي وغيره بسند حسن . ومعنى أحصاها حفظها كما فسره البخاري والأكثرون ، ويؤيده أن رواية في الصحيح «من حفظها دخل الجنة» وقيل : معناه من عرف معانيها وآمن بها ، وقيل معناه :من أطاقها بحسن الرعاية لها ، وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها .

وجاء في شرحه لصحيح مسلم[2] أن العلماء اتفقوا على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصر الأسماء ، ولهذا جاء في الحديث الآخر : «أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك» وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم أنه قال : لله تعالى ألف اسم . قال ابن العربي ، وهذا قليل فيها .

وجاء في تفسير القرطبي للآية المذكورة الإشارة إلى العلاقة بين الاسم والمسمى والفرق بين الاسم والصفة ، وأحال توضيح ذلك إلى تأليفه الخاص عن شرح أسماء الله الحسنى ثم قال : الذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمى أو صفة له تتعلق به ، وذكر أن الأسماء في الآية تعني التسميات ، لأن الله واحد والأسماء جمع ، وقال القاضي أبو بكر [3] عن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين : إنها عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى ، منها ما يستحقه

---

١ - للإمام النووي ص١٠٤ . ٢ - ج١٧ ص ٥ .
٣ - في كتاب التمهيد .

لنفسه ، ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به ، وأسماؤه العائدة إلى نفسه هي هو ، وماتعلق بصفة له فهي أسماء له ، ومنها صفات لذاته ، ومنها صفات أفعال ، وهذا تأويل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ أي التسميات الحسنى . هذا ، وعلماء الكلام قالوا: تسمية الله بالأسماء توقيفية ، أي يتوقف إطلاقها على الإذن فيه ، وذلك للاحتياط ، احترازاً عما يوهم باطلاً ، لعظم الخطر في ذلك[1].

لعل في هذه الكلمة الموجزة ما يكفي للإجابة على السؤال ، وكتب التوحيد والتفسير فيها متسع لمن أراد الاستزادة والمهم هو العمل بمقتضى الإيمان بهذه الأسماء وليس الاكتفاء بحفظها أو حصر عددها ، فالعلم للعمل وليس لمجرد الحفظ .

س : هل يجوز إطلاق أسماء الله الحسنى على المحلات التجارية وغيرها مثل «تسالي الرحمن ، ألبان الرزاق »؟

ج : أمثال هذه الأمور يرجع فيها إلى المعنى الذي يعنيه من كتب هذه العناوين ، وإلى النية الباعثة على ذلك ، فإذا قصد مثلاً من « ألبان الرزّاق » أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق اللبن ويخلصه من بين مواد كثيرة على ما يؤخذ من قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] فلا مانع من ذلك ، وإذا نوى بذلك جلب الزبائن من الصالحين الذي يحسّون بنعمة الله فلا مانع أيضاً . فالأعمال بالنيات كما هو معروف.

س : ما هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ؟

ج : يقول الله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

١- جاء ذلك في كتاب ((المواقف)) للإيجي وشرح معاني هذه الأسماء ، فيرجع إليه .

الإنسان مخير في أن يدعو ربه بأي اسم من أسمائه التي ذكرت في القرآن الكريم ، ويزيد عددها على التسعة والتسعين التي ذكرت في الحديث الذي رواه الترمذي ، وجاء في فضلها حديث البخاري ومسلم « من أحصاها دخل الجنة » أي من حفظها وعمل بما فيها .

وهناك من الأسماء ما هو أقرب للاستجابة عند الدعاء به ، وهو اسم الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى ، والراجح من أقوال العلماء أنه مؤلف من عدة أسماء ، بناء على الأحاديث الواردة فيه ، فقد روى أصحاب السنن أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقال والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى ، كما رووا أيضاً أنه سمع رجلاً يدعو بقوله : اللهم لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام . فقال النبي ﷺ « لقد دعا الله باسمه الأعظم » وفي بعض الروايات أن اسم الله الأعظم موجود في آية ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] وفي فاتحة سورة آل عمران ﴿ الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ٢] [١] .

والظاهر من تعدد الروايات أن القاسم المشترك بينها هو توحيد الله سبحانه ، والدعاء بالتوحيد فيه إخلاص وثقة بالله ، ونفي للشريك عنه ، وتقرير أنه لايستحق أحد سواه أن يُلجأ إليه فلا بد لكل دعاء أن يصحبه هذا الشعور حتى يكون في موضع الرجاء للقبول .

من هذا نرى أن اسم الله الأعظم موجود في القرآن الكريم . على أن هناك أسماء لله لم ينزل بها قرآن ولم يثبت بها حديث ، فقد جاء في بعض أدعية النبي ﷺ « أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب غمي » [٢] .

---

١ – رواه أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح .

٢ – رواه ابن السني عن أبي موسى الأشعري ، وذكره النووي في كتابه ((الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار)).

س : هل هناك فرق بين الرحمن والرحيم ؟

ج : الصفتان مشتقتان من الرحمة ، والرحمن هو البالغ الذروة في الرحمة ، والرحيم هو صاحب الرحمة الكثيرة ، فالرحمن أبلغ منه ، والرحمن خاص بالله تعالى ، لأنه لايمكن لأحد سواه أن يبلغ الذروة فيها ، أما الرحيم فيمكن أن يوصف به غير الله سبحانه ، ومن هنا قال الأكثرون : إن الرحمن علم على الله وليس صفة ، لا يطلق على أحد سوى الله ، وما جاء عن البعض من وصف مسيلمة بأنه رحمن اليمامة ، وقول بعض الشعراء :

وأنت غيث الورى لا زلت رحماناً

فمن المبالغة في الكفر والضلال ، وقيل : إن ما كان فيه أل « الرحمن والرحيم » فهو خاص بالله تعالى ، وما ليس فيه « أل » بأن كان نكرة مثل « رحمن ورحيم » أو مضافاً مثل « رحمن اليمامة ورحيم بني فلان » فليس خاصاً بالله .

ورحمة الله صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضي التفضل والإنعام ، وأما الرحمة بالنسبة لما سوى الله فمعناها رقة في القلب تقتضي الإنعام .

س : هل من أسماء الله تعالى الجميل ؟

ج : روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة فقال « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »[1].

معنى قوله « إن الله جميل » أن كل أمره سبحانه حسن وجميل ، فله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال ، قال أبو القاسم القشيري : معناه جليل ، وقيل معناه : جميل الأفعال بكم والنظر إليكم ، يكلفكم اليسير ويعين عليه ويثيب عليه الجزيل . يقول

---

١ - رواه الترمذي وقال : حسن غريب .

النووي : هذا الاسم ورد في الحديث الصحيح ، وورد في الأسماء الحسنى وفي إسناده مقال ، والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى : ومن العلماء من منعه ، وقال إمام الحرمين أبو المعالي : ما ورد به الشرع جوزنا إطلاقه ، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتجويز ولا منع ، فإن الأحكام الشرعية تتلقى من موارد الشرع ، ولو قضينا بتحريم أو تحليل لكنا مثبتين حكماً بغير الشرع ، ثم لايشترط في جواز الإطلاق ورود ما نقطع به في الشرع ، ولكن ما يقتضي العمل وإن لم يوجب العمل فإنه كاف ، إلا أن الأقيسة الشرعية من مقتضيات العمل ، ولايجوز التمسك بها في تسمية الله تعالى وصفته ، قال النووي : وقد اختلف أهل السنة في تسميته تعالى ووصفه من أوصاف الكمال والجلال والمدح بما لم يرد به الشرع ولامنعه ، فأجازه طائفة ومنعه آخرون إلا أن يرد به شرع مقطوع به من نص كتاب أو سنة متواترة أو إجماع على إطلاقه ، فإن ورد به خبر واحد فقد اختلفوا فيه ، فأجازه طائفة ، وقالوا: الدعاء به والثناء من باب العمل ، وذلك جائز بخبر الواحد ، ومنعه آخرون لكونه راجعاً إلى اعتقاد ما يجوز أن يستحيل على الله تعالى ، وطريق هـذا القطع ، قال القاضي: والصواب جوازه ، لاشتماله على العمل ولقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ وهو كما قال .

هذا ما ورد عن كمال الدين الدميري المتوفى سنة ٨٠٨هـ في كتابه «حياة الحيوان الكبرى»[1].

وخلاصته أن إطلاق اسم «الجميل» على الله فيه خلاف ، وفي اختلاف الآراء سعة.

س : قال تعالى عن أهل الكتاب ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] فهل كانوا يعبدونهم ويتقربون إليهم ؟

ج : قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ

---

١ - ج١ ص ٤٥٧ عند كلامه عن الذر.

أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة : ٣٠، ٣١].

في هاتين الآيتين نعى على اليهود والنصارى الذين نسبوا إلى الله ولداً كما قال الكفار : الملائكة بنات الله ، ونعى عليهم أنهم اتخذوا رؤساءهم الروحيين أرباباً من دون الله ، فما معنى اتخاذهم أرباباً ؟

جاء في تفسير القرطبي [1] قال أهل المعاني : جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء ، ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ انفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف : ٩٦] أي كالنار . وقد سئل حذيفة عن معنى هذه الآية هل عبدوهم؟ فقال: لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه ، وروى الترمذي عن عدي بن حاتم قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال «ما هذا يا عدي اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ ثم قال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» قال : هذا حديث غريب لا يعرف إلا من حديث عبدالسلام بن حرب ، وغطيف بن أعْيَن ليس بمعروف في الحديث.

يؤخذ من هذا أن تفسير اتخاذهم أرباباً بطاعتهم في التحليل والتحريم ليس فيه نص صحيح يعتمد عليه ، وإنما هو اجتهاد غير ملزم ، فغاية ما يمكن أخذه من الآية أن طاعة الأحبار والرهبان طاعة مطلقة كطاعة الله خطأ ، لأن هؤلاء الرؤساء غير معصومين ، فقد تجر طاعتهم إلى العصيان أو الكفر .

والإسلام إذا كان يأمر طاعة أولى الأمر فذلك محله في غير المعصية ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقد صح في حديث المبايعة الذي رواه البخاري ومسلم أن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا

١- ج٨ ص ١٢٠.

ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً[1] عندكم فيه من الله برهان .

ومع عدم الطاعة في المعصية هل يجوز الخروج على ولي الأمر وعزله ؟ إن حديث عبادة يدل على أنه لاتجوز المنابذة إلا عند ظهور الكفر الواضح الذي ليس فيه شبهة ، ومنه الطعن في صلاحية حكم الله ، واعتقاد ما أجمع على حرمته كالزنا والربا أنه حلال ، أما ارتكاب المحرمات بغير اعتقاد حلها فهو عصيان لا يخرج به إلى الكفر ولا يجيز الخروج عليه ، لكن النووي حمل الكفر في الحديث على المعصية ، وابن حجر فصل في الموضوع فقال : والذي ظهر حمل رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة في الولاية فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر ، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية ، فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية ، بأن ينكر عليه برفق ، ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف ، ومحل ذلك إذا كان قادراً .

وعلى ضوء ما قاله ابن حجر : إن فسق الإمام ولم يكفر وجب نصحه بالأسلوب الذي يرجى منه الخير ولا يؤدي إلى فتنة .

ووضع قوانين تحليل الحرام كالربا والخمرحرام دون شك ، لكن لا يحكم بالكفر على واضعها والحاكم بها بناء على قوله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] إلا إذا كان هناك اعتقاد بأن حكم الله غير صحيح ، وأن القانون الوضعي هو الصحيح ، والطاعة لهذه القوانين غير جائزة ، سواء كانت من منطلق كفر من وضعوها أو عصيانهم وفسقهم ، لأن طاعتها تدخل تحت الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ﴾ [التوبة : ٣١] ولابد من تغيير هذا المنكر ، لكن بالطرق المشروعة التي لا تؤدي إلى فتنة[2] .

---

١ - البواح - بضم الباء هو الصراح - بضم الصاد - الذي جاء في رواية الطبراني ، وهو أيضاً البراح - بضم الباء وبالراء بدل الواو - الذي جاء في بعض الروايات ، والمراد به الظاهر البيِّن الذي تشهد له النصوص ولا يقبل التأويل .

٢ - يمكن الرجوع إلى كتابنا ((نعم ، الإسلام هو الحل ولكن أين الطريق)) الذي أعيد نشره بعنوان ((المنهج السليم إلى صراط الله المستقيم)) أو إلى كتابنا : ((الإسلام ومشاكل الحياة)) أو إلى الجزء الأول من كتاب ((بيان للناس من الأزهر الشريف)).

س : هل رؤية الله تعالى ممكنة ؟

ج : اتفق علماء الكلام على أن الله سبحانه يجوز أن ينكشف لعباده انكشافاً علميًّا تامًّا بأن يخلق الله فيهم علماً تاماً ضرورياً بذاته ، كما اتفقوا على أن الرؤية الحاصلة بين الحوادث لبعضهم في الدنيا تكون في مكان وجهة وبارتسام صورة المرئي في العين ، لكنهم اختلفوا في رؤية ذات الباري بدون مقابلة وجهة ولوازم الرؤية للشاهد ، فقال أهل السنة ممكنة وقال غيرهم غير ممكنة .

واستدل أهل السنة بقول الله تعالى في شأن طلب موسى لرؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾[الأعراف : ١٤٣] حيث قالوا : لو لم تكن ممكنة لما طلبها موسى ، وأن الله علّقها على ممكن وهو استقرار الجبل.

وقال غيرهم إن الله نص على ذلك بقوله ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وهو نفي يفيد التأبيد كما يقولون . وكذلك بقوله ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾[الأنعام : ١٠٣].

ومناقشة الأدلة محلها كتب الكلام والتفسير . وهذا الخلاف هو في الدنيا – أما رؤيته في الآخرة ، فقد جاء فيها قوله تعالى ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] وعليها حمل قوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾[يونس : ٢٦] فالزيادة هي رؤيته سبحانه في الجنة ، وفي حديث البخاري ومسلم أن الناس يرون ربهم يوم القيامة كالشمس لاشك فيها وكالقمر ليلة البدر لا شك فيه وروى الحديث عن أكثر من عشرين صحابياً من كبار الصحابة .

وهي كلها رؤية بدون كيف ولا انحصار ، وقد رأى الرسول ربه ليلة المعراج ، لأنه كان في حالة غير عادية حيث كيَّفه الله تكييفاً خاصاً اخترق به السموات ولم تؤثر فيه قوانين الأرض والسماء ، ولم يكن عند سيدنا موسى هذا الاستعداد فلم يستطع رؤيته . والرؤية في الآخرة ممكنة وواقعة لأن قوانينها غير قوانين الدنيا وقد أفاض القسطلاني في «المواهب اللدنية» والزرقاني شارحها – في الكلام على الرؤية وبخاصة رؤية النبي لربه ليلة المعراج [1].

---

١ – يمكن الرجوع إلى هذا المصدر لمن أراد الاستزادة (المقصد الخامس في الإسراء والمعراج).

وأعجبني ما ختم به البحث من نقل قول القرطبي في « المفهم » شرح صحيح مسلم ، وهو التوقف في هذه المسألة ، وعزاه لجماعة من المحققين ، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع ، وغاية ما استدل به الطائفتان - المجيزة والمانعة - ظواهر متعارضة قابلة للتأويل . قال : وليست المسألة من العمليات - غير العقائد - فيكتفى بالأدلة الظنية ، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي. اهـ .

وأنصح بعد إطالة النقاش في هذه المسألة ، وبالاستعداد بالعمل الصالح للقاء الله يوم القيامة ، وسنعرف بحق ويقين ما نتنازع فيه .

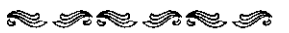

س : سمعنا حديثاً يقول « إنكم ترون ربكم يوم القيامة » فهل هذا حديث صحيح؟

ج : ذكرنا في إجابة سابقة خلاف الناس في رؤية الله في الدنيا ، وأشرنا إلى أن هناك أخباراً تؤكد جواز رؤيته في الآخرة ، وزيادة في التأكيد نقول : جاءت في ذلك أحاديث متفق عليها ، منها حديث رواه البخاري ومسلم عن أكثر من عشرين من أكابر الصحابة منهم أبو سعيد الخدري الذي سأل النبي ﷺ هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً » قلنا لا ، قال « فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم ينادي مناد : ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أهل الصليب مع صليبهم ، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبرات - بقايا - من أهل الكتاب ، وبعد إلقاء اليهود والنصارى في جنهم يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر ينتظرون رؤية الله ، فيأتيهم على غير الصورة التي رأوه أول مرة . . . وعند رؤيته يسجد له كل مؤمن ، ولايستطيع من كان يسجد له رياء وسمعة . . إلى آخر الحديث . وفي حديث آخر للبخاري ومسلم « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان » .

يؤخذ من هذا أن أهل الموقف جميعاً يرون الله ، وتكون الرؤية للمؤمنين نعيماً ولغيرهم شقاء ، يوضحه قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٥] فإذا فرغ من الكافرين وألقى بهم في جنهم يرى المؤمنون ربهم مرة ثانية ، فقد ورد في صحيح مسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل : تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم » ثم تلا هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] فرؤية الله في الآخرة واقعة ولا ينبغي الجدال فيها ، وعلينا أن نستعد للقائه في جنة النعيم فذلك أولى .

س : تأتي في بعض الآيات صفات الله تعالى فيها عبارة « كان » مثل « كان الله غفوراً » فهل هذه الصفات ، كانت في الماضي وزالت عنه وتغيرت أم باقية؟

ج : إذا وصف الله نفسه في القرآن الكريم لم يأت هذا الوصف دائماً مقروناً بلفظ « كان » فكثيراً ما يأتي الوصف بدون ذلك . قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

وفي بعض الآيات يأتي الوصف مع لفظ « كان » كقوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٩] وقوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٦] وقوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٤] .

وليس المراد بذلك أن الله سبحانه كان متصفاً بالمغفرة والرحمة والعلم والسمع والبصر في زمن مضى ، ثم زالت عنه هذه الصفات في الزمن الحاضر ولا يتصف بها في المستقبل ، ذلك لأن تقسيم الزمن إلى ماض وحاضر ومستقبل هو بالنسبة لنا نحن ، حين نتحدث ونحدد ما يقع من أحداث قبل زمن الحديث عنها أو في أثناء الحديث أو بعده ، أما الله سبحانه فهو منزه عن الزمان . وما كان مخلوقاً لا يتحكم فيمن خلقه .

وكأن الله سبحانه حين يقرن صفاته بلفظ « كان » يبين لنا أنه موصوف بذلك قبل أن يخبرنا ، بل قبل أن يخلقنا ، فهي صفات أصيلة فيه وجبت له لذاته لا لعلة أوجدتها فيه . فقد كان الله بصفاته ولا شيء معه . وقد نبه المفسرون على ذلك ، فجاء مثلاً في تفسير الجلالين لقوله تعالى في أول سورة النساء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] قوله : أي لم يزل متصفاً بذلك . وقال الجمل في الحاشية : نبه به على أن « كان » قد استعملت هنا في الدوام ، لقيام الدليل القاطع على ذلك .

س : هل هناك حديث يقول : تخلقوا بأخلاق الله ، وكيف يقال عن صفات الله إنها أخلاق ؟

ج : لايوجد حديث عن النبي ﷺ بهذا اللفظ ، ذلك أن الخُلق كما عبر عنه العلماء ملكة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة من غير فكر ولاروية ، ولايمكن أن يعبر عن صفات الله مثل الرحمة والعدل بأنها آثار لملكة راسخة في النفس .

والذي ورد أن السيدة عائشة رضي الله عنها سئلت عن أخلاق النبي ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن [1] . وجاء في زيادة : يغضب لغضبه ويرضى لرضاه .

وقد علق العارف بالله عمر شهاب الدين بن محمد بن عمر السهروردي المتوفى ببغداد في المحرم سنة ٦٣٢هـ - في كتابه عوارف المعارف على قول السيدة عائشة بقوله: ولا يبعد أن قول عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن فيه رمز غامض وإيماء إلى الأخلاق الربانية ، فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول : كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى ، فعبرت عن المعنى بقولها : كان خلقه القرآن ، استحياء من سُبُحات الجلال ، وستراً للحال بلطيف المقال ، وهذا من وفرة عقلها وكمال أدبها [2] .

---

١ - رواه مسلم وغيره .

٢ - الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٤ ص ٢٤٦ .

فإذا جاء التعبير على لسان بعض رجال التصوف بلفظ « أخلاق الله » فلم يجئ هذا التعبير عن النبي ﷺ . وإن كانت صفات الله سبحانه معروفة .

س : ما معنى قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] مع أننا نعرف أن المكر صفة مذمومة لاتليق بالله سبحانه؟

ج : في مفردات الراغب الأصفهاني أن المكر هو صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان ، مكر محمود ، وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل ، وعلى ذلك قال ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ ومذموم ، وهو أن يتحرى به فعل قبيح ، قال تعالى ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٤٣] وقال تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] وقال تعالى ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥١] وقال في المحمود والمذموم ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٥٠] وقال تعالى ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ومن دعاء الرسول ﷺ « اللهم امكر لي ولاتمكر علي » يعني أن كفار بني إسرائيل دبروا حيلة لقتل سيدنا عيسى عليه السلام ، ودبر الله أمراً آخر لحمايته فألقى شبه عيسى على غيره ، ورفع عيسى إليه ، والله خير من يدبر الأمور ولا يغلبه أحد .

هذا ما نقلته عن مفردات الأصفهاني بتصرف بسيط في تكميل بعض الآيات ، وما يوضح معنى الآية الواردة في السؤال ، أما التفسير الوافي فيرجع فيه إلى كتب التفسير ، ومن هنا نعرف أن المكر هو التدبير ، فإن كان في شر فهو مذموم ، وإن كان في خير فهو محمود .

س : هل صحيح أن من صلَّى الصبح ثم جلس حتى تطلع الشمس يكون له ثواب عمرة؟

ج : عن أنس رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ « من صلى الصبح في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة» قال : قال رسول الله ﷺ «تامة تامة تامة»[1].

من هنا نعلم فضل صلاة الصبح جماعة في المسجد والمكث فيه مع الاشتغال بذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلاة الضحى التي أقلها ركعتان . ولايستبعد أحد أن يكون ثواب ذلك كثواب حجة وعمرة ، ففضل الله واسع ، يقبل القليل ويعطي الجزيل ولذلك نظائر كثيرة منها :

١- فضل ليلة القدر ، فإن قيامها خير من ألف شهر كما نص عليه القرآن الكريم .

٢- فضل أداء الفرض في رمضان ، فثوابه كثواب سبعين فرضاً في غيره ، كما جاء في حديث سلمان الذي رواه ابن خزيمة في صحيحه .

٣- قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . . . .﴾ تعدل قراءة ثلث القرآن كما رواه مسلم وغيره.

٤- النفقة في سبيل الله يضاعفها الله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

٥- روى البخاري ومسلم وغيرهما أنه ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل» .

٦- روى البخاري ومسلم وغيرهما أنه ﷺ قال « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»

١- رواه الترمذي وقال :حديث حسن غريب أي رواه راوٍ واحد فقط ، وجاءت رواية أخرى عن أبي أمامة بإسناد جيد للطبراني بهذا الثواب ، كما جاءت روايات فيها مقال لكن تقبل في فضائل الأعمال بهذا الثواب وبغيره ، والثابت كما رواه مسلم وغيره أن النبي ﷺ كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس

وغير ذلك كثير في الشريعة الإسلامية ، يكون العمل قليلاً ويكون ثوابه كبيراً مادام مستكملاً لأركانه وشروطه مع الإخلاص لله سبحانه . وهذا تشجيع على الإقبال على طاعة الله بالفعل أو العزم عليه كما جاء في الصحيح أن من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر حسنات .

وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر أن العمرة في رمضان تعدل حجة معه كما رواه مسلم فليس معنى ذلك أنها تكفي عن الحج إذا كان قادراً عليه ، بل لا بد من أدائه ، وكذلك إذا كانت صلاة الفريضة في رمضان تعدل سبعين فريضة فيما سواه فليس معنى ذلك أن من ترك سبعين صلاة تكفي عنها صلاة واحدة في رمضان ، بل لابد من قضاء كل ما فات ، وكذلك إذا صح الحديث كما رواه مسلم أن الصلاة في مسجد المدينة أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، فليس المراد أن الصلاة الواحدة تكفي عن ألف صلاة تركها ، ومثل ذلك ما رواه أحمد وابن ماجه بإسنادين صحيحين أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه - لا يعني أن يهمل الإنسان في الصلاة سنوات طويلة ثم يعوض كل ما فات بصلاة واحدة أو أكثر قليلاً في المسجد الحرام .

س : نسمع من بعض المتصوفة ومن لهم ميول دينية أن هناك علماً لَدنيًّا ليس موجوداً في كتاب الله وسنة رسوله ، فهل هذا صحيح؟

ج : ذكر القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ في تفسيره لقول الله تعالى في سورة الكهف ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥] ناقلاً عن الإمام أبي العباس أن قوماً من زنادقة الباطنية قالوا : إن الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة ، أما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم ، وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار ، وخلوِّها من الأغيار ، فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام

الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم ، وقد جاء فيما يقولون : استفت قلبك وإن أفتاك المفتون . قال شيخنا : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ، لأنه إنكار ما علم من الشرائع ، وأحكام الله لا تكون إلا عن طريق رسله المبلّغين المبينين لشرائعه وأحكامه .

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي واليقيني الضروري وإجماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله إلا من جهة الرسل ، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذي جعله الله خاتم الأنبياء والرسل ، فلا نبي بعده ولا رسول .

وبيان ذلك أن من قال : إنه يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه هو حكم الله ، وأنه يعمل بمتقضاه ولا حاجة إلى كتاب وسنة – فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة ، وهذا نحو ما قاله الرسول ﷺ «إن روح القدس نفث في روعي . . » .

والقسطلاني المتوفى في سنة ٩٢٣ هـ في كتابه « المواهب اللدنية » وشارحه الزرقاني [1] نقلا عن بعض كبار التصوف أن من علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ، وعن غيره لا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة . فأما من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتلق العلم من مشكاة الرسول ﷺ ، بدعواه علماً لَدُنّيا أوتيه ، فهو من لدن الشيطان والنفس . وإنما يعرف كون العلم لدنيًّا روحانيًّا بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ من ربه تعالى.

فالعلم اللدني الآتي لصاحبه من عند غيره نوعان ، أحدهما لدنّي رحماني وثانيهما لدني شيطاني ، والمميز لذلك هو الوحي ، ولا وحي بعد الرسول ﷺ . قال الجنيد : علْمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وأما قصة موسى والخضر وقوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فالتعليق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني – إلحاد وكفر يخرج عن الإسلام ، موجب لإراقة الدم . وذلك أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى

---

١ – المجلد ٦ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

الخضر ، ولم يكن الخضر مأمور بمتابعته ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه ، ولهذا قال له : أنت موسى نبي بني إسرائل؟ قال : نعم . فرسالته خاصة ، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين ، فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان . ولو كان موسى وعيسى حيَّين لكانا من أتباعه كما في الحديث .

فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى ، أو جوَّز ذلك لأحد من الأمة فَلْيجدد إسلامه لأنه كفر . وليس من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه ، والعلم اللدني الرحماني هو ثمرة العبودية ، والمتابعة لهذا النبي الكريم ، وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنة بأمر يختص به صاحبه ، كما قال علي ابن أبي طالب لأبي جحيفة وقيس بن عباد والأشتر النخعي - في سنن النسائي - حين سئل : هل خصَّكم يا أهل البيت رسول الله ﷺ بشيء دون الناس من أسرار علم الوحي كما تزعم الشيعة ؟ فقال : لا إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه ، فهذا هو العلم اللدني الحقيقي .

وقد جعل السيوطي في كتابه «الإتقان» فصلاً عن كلام الصوفية في القرآن ، فيه تحذير شديد لما يخالف ما اتفق عليه .

س : هل من الحديث ما يقال «عبدي أطعني تكن ربانيًّا تقول للشيء كن فيكون» ؟

ج : لم أجد هذا الكلام حديثاً صحيحاً، وإن كان هناك ما يؤيد معناه مثل «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به .. ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»[1] .

س : ما هو الشرك الخفي ؟

ج : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال» ؟ فقلنا : بلى يا رسول الله فقال «الشرك الخفي ، أن يقوم الرجل

---

١ - رواه البخاري .

فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل »[1] . وجاءت فيه روايات بألفاظ متقاربة كلها تفيد أن الرياء مذموم ، كأن الإنسان يشرك مع الله غيره في أداء العبادة ، قال تعالى في ذم المرائين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء : ١٤٢] وقال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون : ٤ - ٧] .

والأحاديث في ذم الرياء كثيرة ، منها حديث مسلم في الثلاثة الذين يكونون أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة ، المجاهد والعالم والجواد ، كانوا يحرصون على ثناء الناس عليهم ، وحديث البخاري ومسلم « من سمَّع سمَّع الله به ، ومن يراء يراء الله به » أي من أظهر عمله للناس رياء أظهر الله نيته الفاسدة يوم القيامة وفضحه على رءوس الأشهاد . وحديث ابن خزيمة في صحيحه « يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر » قالوا وما هو؟ قال « يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً ، لما يرى من نظر الناس إليه ، فذلك شرك السرائر » وجاء في حديث أحمد والطبراني أن النبي حذَّرهم من هذا الشرك الخفي فسألوه كيف يتقونه ؟ فقال « قوالوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لانعلمه » وفي بعض الروايات : يقال ذلك ثلاث مرات كل يوم .

س : نسمع بعض العلماء يقولون أو يكتبون بعد أن يجيبوا على سؤال ديني ، أو يبحثوا قضية دينية « الله ورسوله أعلم » فاعترض بعض الناس على هذه العبارة وقالوا إنها من الشرك ، فهل هذا صحيح؟

ج : بعد التحذير من الإسراع في الحكم على أي شيء بدون علم دقيق ، وبخاصة في الأمور الدينية - أقول : إن كتب الدين مملوءة من قديم الزمان بهذه

---

١ - رواه ابن ماجه والبيهقي.

العبارة ، وبخاصة في الأحكام الاجتهادية التي ليس فيها نص قاطع . ولم يعترض عليها أحد ممن يوثق في علمهم ، وذلك يوحي بالإجماع على جوازها .

والأصل في ذلك قبل الإجماع أنها قيلت أمام الرسول ﷺ ولم يمنعها ، فقد روى البخاري ومسلم أنه في حجة الوداع سأل في خطبته يوم النحر بمنى قائلاً للصحابة: « أي شهر هذا »؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال « أليس ذا الحجة » فقالوا : بلى . وحدث مثل ذلك حين سألهم عن اليوم والبلد ولم ينكر عليهم هذه العبارة . وروى مسلم [1] أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل « هل تدري ما حق الله على العباد »؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال « فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً » ثم قال له بعد مدة (هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك » ؟ فقال : الله ورسوله أعلم ، قال « ألا يعذبهم » فلم ينكر الرسول على معاذ قوله : الله ورسوله أعلم .

وفي الحق إنها عبارة صادقة ، فالله سبحانه هو أعلم مَنْ خَلَقَ على الإطلاق ، كما أن رسول الله ﷺ أعلم من الصحابة ومن أرسل إليهم بالأحكام الدينية التي تلقاها عن الله ، والتي أذن بإصدارها وأمرنا بطاعته فيها . والنصوص كثيرة في ذلك ، منها قوله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] وقوله ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] وقوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] . بهذا وبغيره لا يوجد مبرر لاعتراض بعض الناس على عبارة «الله ورسوله أعلم» .

س : إذا كان السجود لله وحده فلماذا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، وكيف سجد أخوة يوسف له؟

ج : أولاً : سجود الملائكة لآدم ليس سجود عبادة ، بل سجود تحية .

---

١ - ج١ ص٢٣٠ .

ثانياً : الذي أمر بذلك هو الله ، ولا بد من امتثال أمره ، لكن لو أمر أحد غير الله بالسجود لغير الله حرم الأمر وحرم الامتثال ، جاء في ا لحديث النبوي « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »[1] .

وقال المفسرون بعد اتفاقهم على أن سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة: إن الله أمرهم أن يضعوا جباههم على الأرض ، وذلك تكريماً لآدم ، أو كان السجود لله ولكن القبلة هـي آدم ، كما يقال : صلى الإنسان للقبلة ، أي إليها ، وقيـل : إن السجود لم يكن سجوداً مادياً بأية هيئة ولكنه سجود معنوي هو الإقرار والاعتراف بفضل آدم . ومهما يكن من شيء فإن السجود للتحية - لا للعبادة - ظل معروفاً من قديم الزمان حتى زمن يعقوب عليه السلام قال تعالى عن يوسف ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف : ١٠٠] بل بقي إلى زمن الرسول ﷺ ولما رأى الصحابة سجود الشجر والجمل له قالوا: نحن أولى بالسجود لك فقال : « لاينبغي أن يُسجد إلا لله رب العالمين » وروى ابن ماجه في سننه والبستي في صحيحه أن معاذ بن جبل لما قدم من الشام سجد لرسول الله ﷺ فقال « ماهذا؟ » قال : يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأباطرتهم وأساقفتهم ، أردت أن أفعل ذلك بك ، فقال « فلا تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، لاتؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ، حتى لو سألها نفسها وهي على قتب[2] لم تمنعه » .

من هذا يعرف أن سجود العبادة ممنوع ، وأن سجود التحية لآدم كان بأمر من الله ، وسجود إخوة يوسف كان للتحية أيضاً ، ونهى عنه الإسلام مطلقاً ، حتى لو كان للتحية.

---

١ - رواه الترمذي وصححه.

٢ - القتب رحل صغير على قدر سنام الجمل.

س : ما هو سبُّ الدهر ، وكيف تكون عباراته لتجنبها ، وحكمة النهي عنه في الإسلام ؟

ج : سب الدهر يكون بعبارات مختلفة تدل على الضيق منه ولعنه واحتقاره . ولا يلجأ إليه إلا من وقع في أزمة شديدة لايجد خلاصاً منها ، وبخاصة إذا وجد غيره من الناس يتمتع بكل أنواع النعيم . والرسول ﷺ نهى عن لعن أي شيء كما رواه أبو داود والترمذي «من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه» .

والذي يلعن الزمان أو المكان خالف هدي الرسول ﷺ في النهي عن اللعن ، وبخاصة الدهر ، جاء في حديث البخاري ومسلم « قال الله تعالى : يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر ، بيدي الليل والنهار » وفي رواية « أقلّب ليله ونهاره ، وإذا شئت قبضتهما » وفي رواية لمالك « لا يقل أحدكم : يا خيبة الدهر ، فإن الله هو الدهر » يقول الحافظ المنذري : معنى الحديث أن العرب كانت إذا نزلت بأحدهم نازلة أو أصابته مصيبة أو مكروه يسب الدهر ، اعتقاداً منهم أن الذي أصابه هو فِعْلُ الدهر ، فكان كاللعن للفاعل ، ولا فاعل لكل شيء إلا الله تعالى خالق كل شيء ، فنهاهم النبي ﷺ عن سب الدهر ، لأنه مدرجة لسب فاعل الأمور وخالقها ، وهو الله تعالى .

والدهر ليس اسماً من أسماء الله تعالى ، فالله هو خالقه وخالق كل شيء ، ومهما يكن من شيء فإن أسماء الله تعالى ليست محصورة في التسعة والتسعين ، كما في الحديث الآخر الذي يقول « أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك » وعلماء الكلام قالوا : تسمية الله بالأسماء توقيفية ، أي يتوقف إطلاقها على الإذن فيه ، وذلك للاحتياط ، احترازاً عما يوهم باطلاً لعدم الحظر في ذلك[1] . وعلى هذا فلا يجوز الحلف بالدهر على أنه من أسماء الله .

---

١ – جاء هذا في كتاب ((المواقف)) للإيجي ، وشرح معاني هذه الأسماء ، فيرجع إليه .

س : ما حكم الدين فيمن يسبون الديك أو أي شيء آخر يدل أن يسبوا الدين؟

ج : يجري على ألسنة بعض الفساق عبارة سب الدين ، وذلك ردة وكفر لها حكمها ، وأحياناً يقول الشخص « يلعن ديك أمك » وحكمه أنه إذا كانت نيته سب الدين ولكن يتستر بلفظ الديك حتى لا يؤاخذه أحد عليه فهو مرتد عند الله سبحانه ، لأن الإنسان يحاسب عند ربه بحسب نيته ، أما بالنسبة لنا فلا نحكم عليه بالردة ، لأننا مأمورون بالحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر .

وأحذر هؤلاء من هذه العبارة التي لو تعودوها فقد يصرحون بسب الدين وهنا يكون الكفر ، مع أن النبي ﷺ نهى عن سب الديك فقال : « لاتسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة » وفي لفظ « فإنه يدعو إلى الصلاة »[1].

س : ما حكم من يحلف ويقول : أكون على غير دين الإسلام إن فعلت كذا؟

ج : قال النووي[2] : يحرم أن يقول الإنسان : إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني أو بريء من الإسلام ونحو ذلك .

فإن قاله وأراد حقيقة تعليق خروجه عن الإسلام بذلك صار كافراً في الحال ، وجرت عليه أحكام المرتدين . وإن لم يرد ذلك لم يكفر ، لكن ارتكب محرماً ، فيجب عليه التوبة ، بأن يقلع في الحال عن معصيته ، ويندم على ما فعل ، ويعزم على ألا يعود إليه أبداً ، ويستغفر الله تعالى ويقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

---

١ - رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد جيد.
٢ - الأذكار ، ص ٣٥٦.

س : ما حكم من قال لمسلم يا كافر ؟

ج : روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : « إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه » وفي رواية لهما « من دعا رجلاً بالكفر ، أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه » ومعنى حار رجع .

س : يتحدث الناس كثيراً عن الوسيلة ما بين مجيز ومحرم ، نريد تحديد المراد منها وبيان حكمها الصحيح؟

ج : موضوع الوسيلة والتوسل اشتد الخلاف فيه أخيراً ، وبخاصة عندما نشر كتاب الوسيلة لابن تيمية ، ففريق قال بمشروعيته ، وفريق آخر قال بعدم مشروعيته ، وقد تغالى كل من الفريقين في التمسك برأيه ، والتغالي في كل شيء مدرجة إلى التعصب إن لم يكن هو التعصب نفسه ، وهو يؤدي إلى نتائج خطيرة ، أدناها تمزق المسلمين وأقصاها رمي بعضهم بعضاً بالكفر ، وترجمة ذلك إلى معاملات عنيفة .

والتعصب من الفريقين أدى إلى إسراف كل منهما في حشد الأدلة التي تؤيد وجهة نظره حتى لو كانت ضعيفة السند ، وإلى الإغراق في تأويل ما صح سنده ليقف إلى جانبه حتى لو كان التأويل بعيداً ، وإلى الاستشهاد بما وقع من كبار الشخصيات حتى لو كانوا ممن لا يؤخذ عنهم التشريع .

وهذا أمر لا يقره الدين الذي يدعو إلى الوحدة ، وإلى الاعتدال وعدم التعصب وعدم الإسراف . فهناك نصوص محكمة قطعية الثبوت واضحة الدلالة ، وهناك أصول راسخة تكون المعالم الأساسية للدين ، يجب أن يحتكم إليها ، ويرد كل اختلاف إلى ما تدل عليه ، وذلك لتقريب وجهات النظر وتخفيف حدة التعصب ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

إن المغالين في الإنكار على التوسل عمدوا إلى نصوص واردة في الكفار وطبقوها على المسلم الذي يؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ، كما فعل الخوارج من قبل ، فحكموا على كثير من المسلمين بالكفر بناء على نصوص وردت في الكافرين نقل البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول : شرار خلق الله الخوارج ، عمدوا إلى آيات نزلت في المشركين فجعلوها في المسلمين . ومثل ذلك قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .

وذلك كاستشهادهم بقول الله تعالى حكاية عن المشركين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر : ٣] في أن من يتوسل إلى الله بشخص كان مشركاً ، مع أن المتوسل لم يعبد من توسل به .

والمغالون في التوسل أفرطوا في حب الصالحين فوضعوهم فوق ما يستحقون ، حتى قال بعضهم : إن فيهم من يتصرف في الكون وإن كان ذلك كله بإرادة الله تعالى ، لكن الاعتقاد في سمو منزلتهم كان ينسيهم ربهم . والرسول ﷺ حذَّر من التغالي في حبه ، مع أن حبه في قمة الحب الواجب على المؤمن كما في الحديث الشريف «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار» فقال عليه الصلاة والسلام «لاتطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولكن قولوا عبدالله ورسوله» .

والحد الوسط الذي يجب أن نقف عنده جميعاً ، ونلتقي عنده إخواناً متحابين هو:

١- الاعتقاد بوحدانية الله تعالى ، لا شريك له في ملكه ، هو الخالق والرازق والنافع والضار ، وإليه يرجع الأمر كله ، وكل شيء يمس هذه الوحدانية ممنوع .

٢- الاتجاه بالعبادة إليه وحده ، لانشرك به أحداً فيها كما قال سبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] وقال ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

٣- الإيمان بأن الله يكرم من يشاء من عباده بما يشاء من فضله ومن أنواع هذا الإكرام قبول دعائه والاستجابة له ، كما قبل دعاء المرسلين بتحقيق الخير لهم أو دفع الشرعنهم . ومن ذلك ما ورد في سورة الأنبياء عن دعاء نوح بنصره على من كذبه ، ونجاته ومن معه من الغرق ، وأيوب بكشف الضرعنه ، ويونس بنجاته من بطن الحوت ، وزكريا بطلب الذرية . وما ورد في سورة البقرة وإبرهيم عن دعاء إبراهيم وإسماعيل بأمن البلد الحرام والحج إليه وبعث رسول إلى الأمة المسلمة من ذريتهما .

ومن الإكرام قبول الشفاعة للناس بإذنه ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ : ٢٣] .

ومن الإكرام منع العقاب عمن يستحقونه من أجل وجود من يحبه الله فيهم ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

٤- الإيمان بأن الله قادر على أن يخرق العادات التي ألفها الناس ونظموا عليه أمور حياتهم ، وخرق العادة إن كان لنبي سمي معجزة ، وإن كان لولي صالح سمي كرامة ، وفي القرآن والسنة عن أخبار المعجزات والكرامات كثير .

٥- كل من ظهرت على أيديهم المعجزات والكرامات يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى هو فاعلها ، ولا قدرة لهم عليها إلا بقدرته تعالى ولم ينسبها أحد لنفسه على الحقيقة ، مع جواز ذلك على سبيل المجاز ، وذلك واضح في قول عيسى عليه السلام ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

٦- عبادة الله يجب أن تكون على الوجه الذي ارتضاه للتقرب به إليه ، وما سوى ذلك مرفوض ، وهذا الوجه الذي ارتضاه موجود في كتابه وسنة نبيه ، ومنه

ما هو واضح لا غموض فيه ، وما يحتاج إلى بيان قام ببعضه الأئمة المجتهدون . وما كان مجمعاً عليه أو دليله قطعي الثبوت والدلالة لايجوز العدول عنه ، وماكان غير ذلك كان للاجتهاد فيه نصيب ولا يجوز القطع بأن من خالفه فقد عصى الله ورسوله ، وذلك مبسوط في كتب الأصول .

٧- يجب اعتبار النية عند الحكم على أي فعل يصدر من العبد كما قال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » . وإذا لم نعلم نية العبد وجاز لنا أن نحكم على الظاهر فإن هذا الحكم لا يكون قطعيًّا تترتب عليه آثار خطيرة على النفس أو المال أو العرض أو الدين . وقد صح أن النبي ﷺ قال : « إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » والذي يحكم الحكم الصحيح على العبد هو الله سبحانه وتعالى ، لأنه أعلم بنيته ، فإن أفصح لنا العبد عن نيته وقصده كان الحكم عليه صواباً أو أقرب إلى الصواب .

ومعرفة الحقيقة والمجاز في اللغة العربية تفيد في هذا الموضوع . فلو قال أحد مثلاً : المطر هو الذي أنبت النبات ، وأسند الإنبات إلى المطر حقيقة دون تدخل من قدرة الله وإرادته كان ذلك كفراً ، أما إذا كان يعتقد أن الإنبات هو بقدرة الله وأن المطر لايعدو أن يكون سبباً فذلك أمر لا غبار عليه ، ولايجوز رمي قائله بالكفر . وأسلوب المجاز مستعمل بكثرة عند العرب وموجود في القرآن الكريم والسنة النبوية .

٨- إذا وجدنا خطأ في العبادة قولاً أو عملاً وجب علينا أن ننبه المخطئ إليه ، لأن ذلك من ضمن ما كلفنا الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والذي ينبه على الخطأ من يعلم بأنه خطأ ، قال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

ويجب أن يكون التنبيه بالأسلوب الذي رسمه الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] فمن كان جاهلاً بالحكم كانت الوسيلة تعليماً له والتعليم

لابد أن يكون حكيماً يختار له الأسلوب المناسب . ومن كان عالماً بالحكم ولكنه مقصر في التطبيق كانت الوسيلة وعظاً له قائماً على الترغيب في الخير والترهيب من الشر ، ويلزم أن يكون الأسلوب مهذباً متناسباً مع حجم الموضوع وحال من يوجه إليه النصح ومن كان متعصباً لفكره أو أسلوبه لاينقصه العلم ولا تفيده الموعظة فهو يلجأ إلى المناقشة والجدال كان التحاور معه بالطريقة المثلى ، يختار له أحسن الأساليب ، لأن طرفي النقاش يقفان موقف الند للند ، والفائز منهما من يدلي بأحس ما عنده قولاً وفعلاً .

٩- من أهم ما يساعد على تقريب وجهات النظر ، وجمع أصحاب الفكر على كلمة سواء ، تحرير المراد من الألفاظ وتحديد المفاهيم ، ولهذا سنبدأ ببيان معنى الوسيلة والتوسل وما يراد منهما ، ثم نذكر الحكم بما يتفق مع هذا المعنى .

معنى الوسيلة والتوسل :

جاء في مختار الصحاح : الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير ، والجمع الوسيل والوسائل والتوسيل والتوسل واحد ، يقال : وسل فلان « بالتشديد » إلى ربه وسيلة ، وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل .

وجاء في القاموس المحيط : الوسيلة المنزلة عند الملك ، وتوسل إلى الله تعالى عَمِل عملاً تقرب به إليه .

وفي القرآن الكريم جاء لفظ الوسيلة في موضعين ، أولهما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] ثانيهما في قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ [الإسراء : ٥٧] كما جاء في السنة في قول النبي ﷺ « إذا سمتعم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لاتنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة » .

أما المراد منها في الحديث فواضح ، لأن النبي ﷺ هو الذي بينه ، لكن المراد بها في الآيتين يتردد بين أمرين ، أولهما القربة أو الطاعة التي يتوصل بها الإنسان إلى ما يريد ، وأفضل ما يريده المؤمن هو رضوان الله تعالى ، وثانيهما الغايةأو المنزلة التي يتوصل إليها بالقربة أو الطاعة .

جاء في تفسير القرطبي للآية الأولى : الوسيلة فعيلة من توسلت إليه أي تقربت ، قال عنترة :

إن الرجال لهم إليك وسيلـــة أن يأخذوك ، تكحلي وتخضبي

وعليه فالوسيلة هي القربة والعمل كما قال الحسن ومجاهد وقتادة وعطاء والسدي وغيرهم . وجاء في تفسيره للآية الثانية أن معناها : يطلبون من الله الزلفة والقربة ، ويتضرعون إلى الله في طلب الجنة وهي الوسيلة . وعليه فالوسيلة هي الغاية المطلوبة من العمل .

وذكر ابن الأثير في « النهاية » بعد ذكر حديث مسلم المتقدم هذه المعاني الثلاثة فقال : الوسيلة في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به ، والمراد في الحديث القرب من الله تعالى ، وقيل هي الشفاعة يوم القيامة ، وقيل هي منزلة من منازل الجنة كما جاء في الحديث .

ومن هنا نرى أن الوسيلة قد يراد بها الطريقة الموصلة إلى الغاية ، أو الغاية نفسها بصرف النظر عن تحديدها أو الغاية الخاصة المحددة ، وهي منزلة في الجنة ، ولاخلاف بين أحد من المسلمين في هذا الإطلاق ، إنما وقع الخلاف في المعنى الأول عند تحديد الطريقة التي يتوسل بها الإنسان إلى رضوان الله تعالى ، ومع ذلك لايشك أحد في أن هذه الطريقة بشكل إجمالي تقوم على أمرين أساسيين ، أولهما الإيمان وثانيهما التقوى أو العمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧] وقال ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] لكن الخلاف يدور حول بعض الألفاظ والعبارات المتعلقة بالإيمان والتقوى ، نذكر أهمها فيما يلي :

١ - التوسل إلى الله بالنبي والأنبياء :

لاشك أن رسول الله ﷺ وسيلتنا إلى الله ، من حيث إنه معلِّم ومرشد ، فطاعته وحبه أساس حب الله للعبد ، قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] وقال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] وكذلك دعاؤه لنا من وسائل القرب من الله ، وأيضاً شفاعته العظمى يوم القيامة ، وشفاعته الخاصة لبعض أمته ، والذين يسألون له الوسيلة بعد إجابة المؤذن كما سبق في الحديث الذي رواه مسلم . ولا يختلف في ذلك أحد من المسلمين ، إنما الخلاف في قول بعض الناس :اللهم إني أتوسل إليك بنبيك أن تغفر لي ، أو استشفع به إليك وهذا القول يحتمل توجيهين :

الأول : التوسل بالنبي ﷺ ليدعو له ، وهذا لا يشك أحد في جوازه وبخاصة في حياته ، فقد طلب الصحابة منه الدعاء فدعا لهم وأجيب دعاؤه . روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر يوم الجمعة وقال : يا رسول الله ، هلك المال وجاع العيال ، فادع الله لنا . فدعا النبي فنزل المطر مدة أسبوع فقال الأعرابي : تهدم البناء وغرق المال ، فادع الله لنا . فدعا فقال «اللهم حوالينا ولا علينا» فانزاح السحاب .

وجاء في البخاري عن أنس أيضاً أن عمر رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبيك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . فكان العباس يدعو وهم يؤمنون لدعائه فسقوا .

الثاني : التوسل بذات النبي ﷺ ، بمعنى أن يدعو الداعي ربه راجياً الإجابة إكراماً للنبي لمنزلته عنده .ومثل النبي في ذلك غيره من الأنبياء ، فيقول الداعي : أسألك اللهم بنبيك أو بجاه نبيك أن تغفر لي .

وهذه العبارة تحتمل أمرين :

أ- أحدهما القسم وأداة القسم هي الباء مثل : بالله أن تجلس أو تفعل كذا ، على معنى أقسم بالله . والجمهور يمنعون القسم بغير الله يقول النبي ﷺ : « من

كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » . وأجاز أحمد بن حنبل في رواية عنه القسم بالأنبياء .

ب- وثانيهما عدم القسم ، إذا أريد بالباء السببية ، والمعنى أسألك يا الله بسبب نبيك أن تكرمني ، فإن كان المراد : بسبب الإيمان به وحبه وطاعته فلا غبار عليه ، لأنه توسل بعمله هو ، وهو قربة إلى الله تعالى . وإن كان المراد : بسبب ذاته ، أو بسبب منزلته من الله ووجاهته عنده ، فهذا هو الذي احتدم الخلاف حوله بين العلماء .

ففريق ينكره ، لأن مجرد الجاه لا يعطي الشفاعة ، وعلى رأس هذا الفريق ابن تيمية ، وقد ألف في ذلك رسالة خاصة ، حاول فيها أن يرد ما جاء عن الصحابة في جوازه ، إما بالطعن في السند بالضعف أو الوقف على الصحابة أو على من ليس قوله أو فعله حجة ، وإما بالتأويل ، فيؤول ما ثبت منه على أنه توسل بدعاء النبي أو دعاء غيره كما حدث في استسقاء عمر بدعاء العباس ، وكما حدث في حديث الأعمى ، وسيأتي بعد ، ومنه توسل الناس في الموقف يوم القيامة بالأنبياء ليشفعوا لهم عند الله ، أي ليدعوا الله لهم ، وأن النبي ﷺ يدعو ، بعد أن يرفع رأسه من السجود تحت العرش ، فيقول له ربه : ارفع رأسك وسل تعط ، واشفع تشفع . فيقول : يا رب أمتي . وفريق يثبته ، ومنهم العز بن عبدالسلام الذي قال في فتاويه : لايجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله ﷺ إن صح حديث الأعمى .

واستدل هذا الفريق بما أثر في ذلك ، ومنه :

١ - كان أهل الكتاب بنو قريظة والنضير يتوسلون بالنبي ﷺ قبل وجوده لينصرهم الله على أعدائهم . قال تعالى في اليهود ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [البقرة : ٨٩] فكانوا إذا قاتلوا المشركين قالوا : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، فينصرهم الله .

٢- عن عثمان بن حنيف أن ضريراً طلب من النبي ﷺ أن يدعو الله له بالعافية ، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بقوله « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا رسول الله إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي ، اللهم فشفعه فيَّ » وفي رواية « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » قال عثمان : فو الله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيراً كأنه لم يكن به ضر .

وجاء أن عثمان بن حنيف أرشد رجلاً إلى ذلك فقضى له عثمان بن عفان حاجته . ويرد الفريق المانع بأن الشفاء ليس بهذا الدعاء ، وإنما بتوسل الأعمى بدعاءالنبي وشفاعته ، ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي ﷺ بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله . لكن أجاب هؤلاء بأنه لا مانع أبداً أن يكون الشفاء بدعاء الأعمى لربه مستشفعاً بالنبي ، ولذلك قال : اللهم فشفعه فيَّ . وقد كان الأعمى صادقاً في الدعاء خاشعاً فاستجاب الله له ، ولو صدق غيره وخضع في دعائه ما كان هناك مانع من الاستجابة . وما دام الأمر فيه احتمال فلا يتحتم المنع .

٣- علم النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يقول : « اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وبإبراهيم خليلك . . . » ورد عليه بأنه حديث غير صحيح .

٢- التوسل إلى الله بحق النبي والأنبياء :

جعل بعض العلماء هذه العبارة كالتوسل بذات النبي والأنبياء وجاههم ومنزلتهم عند الله ، فيقال فيها ما قيل من قبل .

ففريق ينكره كابن تيمية ومن معه . ومن قبلهم أبو حنيفة وأصحابه حيث قالوا: لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال القدوري في شرح الكرخي في باب الكراهة : لاينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك . وهو قول أبي يوسف ، قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : بحق فلان أو بحق

أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . قال القدوري المسألة بخلقه لاتجوز ، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، فلا تجوز وفاقاً .

ويعلق ابن تيمية في رسالته على ذلك بما ملخصه : إن الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسأل بمخلوق له معنيان ، أحدهما المنع بالقسم بالمخلوق على المخلوق ، وبالأولى على الخالق ، والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد ، وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك ، وقيل مكروه كراهة تنزيه . والأول أصح ، لأن الحلف بغير الله شرك .

أما الحلف بالأنبياء فعن أحمد روايتان ، إحداهما لا ينعقد اليمين به ، كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعي ، والثانية ينعقد اليمين به ، واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه .

ويرد ابن تيمية على ادعاء بعضهم أن الإمام مالكاً يجيز التوسل بالأنبياء ، أي السؤال بهم إلى الله ، ويقول : إن قول مالك لأبي جعفر المنصور - الذي سأله ، أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله؟ - ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٦٤] سنده منقطع . ووضح ابن تيمية وجوه ضعف هذه الحكاية لأن مالكاً وغيره إذ يقول باستقبال الرسول عليه السلام يقول باستقبال القبلة في الدعاء .

وهذا الخبر جاء في كتاب « شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق » للنبهاني . أن القاضي عياضاً ذكره في الشفاء ، وساقه بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس فيه وضَّاع ولا كذاب ، كما قال ابن حجر في « الجوهر المنظم » : رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه ، وقال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية رواها علي بن فهر بإسناد جيد ، كما ذكرها السبكي في « شفاء السقام في

زيارة خير الأنام» والسمهودي في (خلاصة الوفا) ووضح النبهاني [1]. وذكرها المغني [2].

وفريق لاينكر التوسل بحق النبي والأنبياء ، فلهم حق على الله ، كما أن لغيرهم حقًّا عليه سبحانه . قال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] وقال ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام : ٥٤] وفي حديث الصحيحين يقول النبي ﷺ «يا معاذ ، أتدري ماحق الله على عباده» ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال «حقه عليهم أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً ، يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك»؟ قال «حقهم عليه ألا يعذبهم» .

وهذا الحق عام لكل العباد ، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون ، فهو كجاههم ومنزلتهم يجوز التوسل به . ومما يدل على ذلك ما يأتي :

أ- عن أنس - رضي الله عنه - قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد - رضي الله عنها - وكانت ربت النبي ﷺ ، وهي أم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - دخل عليها الرسول فجلس عند رأسها وقال : رحمك الله يا أمي بعد أمي . وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها ، فلما بلغوا اللحد حفره ﷺ فاضطجع فيه ثم قال : «الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنك أرحم الراحمين» [3] .

ب- روى البيهقي بإسناد صحيح في كتابه «دلائل النبوة» الذي قال فيه الحافظ الذهبي : عليك به فإنه كله هدى ونور : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي فقال الله تعالى : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟

١- شواهد الحق ، ص ١٨٧ . ٢- ابن قدامة ، ج٣ ص ٥٩٠.

٣- هذا الحديث رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم ، وصححوه.

قال : يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لاإله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله تعالى : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إليّ ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك »[1] .

ج- روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي هذا إليك ، فإني لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه ، واستغفر له سبعون ألف ملك »[2] .

د- هناك أحاديث أخرى مثل « إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم » يقول ابن تيمية عنه : إنه كذب وحديث دعاء الحفظ الذي جاء فيه : «وأسألك بحق نبيك . . . » يقول عنه : إنه منكر وحديث الأربعة الذين دعوا عند الكعبة ، ذكره ابن أبي الدنيا في مجاب الدعوة ، ويقول عنه ابن تيمية أيضاً إنه كذب .

يقول المانعون للتوسل بحق النبي والأنبياء : صحيح أن حق الأنبياء على الله لا مرية فيه ، ولكنه بمعنى رفع الدرجات وقبول الشفاعات والدعاء إذا شاء ، كما قال سبحانه : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] أما أن يكون مجرد هذا الحق مما يقتضي إجابة الدعاء إذا سأل أحد الله به ، فذلك غير مسلم . لكن يمكن أن يقال في الرد على هذا : إن تفسير الحق للأنبياء بذلك فقط تحكم لا دليل

١- رواه الحاكم أيضاً وصححه والطبراني ، وزاد فيه ((وهو آخر الأنبياء من ذريتك)) . وهذا الحديث روي مرفوعاً وموقوفاً على عمر . ورد عليه المانعون بأن تصحيح الحاكم مما أخذ عليه في هذا الحديث وغيره.

٢- ذكره السيوطي في الجامع الكبير . ويقول المعلق على كتاب الوسيلة لابن تيمية : إسناده ضعيف .

عليه . فلماذا لاتكون ذواتهم ووجودهم وسيلة للخير ، كما قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] كما كان لوجود العباس نفسه عند الاستسقاء أثر في رحمة الله لعباده عند الاستسقاء؟ وليس عمر بأقل درجة من العباس في قبول الدعاء لو كان المقصود هو الدعاء فقط .

٣- التوسل بغير الأنبياء :

التوسل إلى الله بالصالحين من عباده إن كان بمعنى طلب الدعاء منهم فلا مانع أبداً وقد طلب النبي ﷺ من عمر رضي الله عنه ألا ينساه من دعائه عندما استأذنه للسفر إلى العمرة وأمر أويسا القرني أن يستغفر له . وأمر أمته بطلب الوسيلة له كما مر في حديث مسلم عند إجابة المؤذن .

وإن كان التوسل بذواتهم وجاههم فإن كان بمعنى القسم فلا يجوز إذ لايجوز القسم من العباد غير الله ، وفي الأنبياء خلاف تقدم ، وإن كان بغير القسم ففيه الرأيان المذكوران في الأنبياء . ففريق يثبته ويستدل باستسقاء عمر بالعباس ، وكذلك بتوسل معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين بيزيد بن الأسود الجرشي وكذلك بما سبق في حديث الخروج إلى المسجد « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك . . . » وذلك إلى جانب أنه لم يرد نص يمنع من هذا التوسل . وفريق ينكره ، ويؤول ما ورد من ذلك إما بضعف السند ، وإما بمعنى الدعاء ، فإن بعض العباد لهم منزلة عند الله يستجيب دعاءهم . وجاء في الصحيحين قول النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وهو في صحيح مسلم في حق أويس القرني ، ومنهم البراء بن مالك إذا اشتد الحرب بين المسلمين والكفار يقولون : يا براء ، أقسم على ربك ، فقال : يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فأبر الله قسمه وانهزم العدو واستشهد البراء .

٤- التوسل بالأموات :

التوسل المذكور كان بالأحياء ، أما الأموات ففريقان ، فريق حي في قبره ، وفريق غير حي .

ومن الأحياء في قبورهم الأنبياء ، كما سيأتي بيانه ، فالتوسل بهم يجري عليه ما جرى على التوسل بهم قبل دفنهم .

فأجازه جماعة ، بدليل ما روى البيهقي في : « دلائل النبوة » أن قحطاً أصاب الناس في زمان عمر ، فجاء رجل قبر النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه الرسول في المنام فقال : « ائت عمر فاقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون ، وقل له :عليك الكيس الكيس » فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى وقال : يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه ، يعني لا أقصر إلا فيما عجزت عنه .

ومنع جماعة التوسل بهم ، منهم ابن تيمية الذي يقول : لو كان جائزاً ما احتاج عمر إلى التوسل بالعباس ، وكان يمكنه أن يتوسل بالنبي بعد موته ، لكن قد يرد عليه بأن عمر فعله لبيان جواز الاستسقاء بغير النبي ﷺ ، لأنه ربما يتوهم بعض الناس أنه لايجوز الاستسقاء بغير النبي ﷺ ، ولو استسقى عمر بالنبي لأفهم أنه لايجوز الاستسقاء بغيره ، كما أن من يستسقى به يكون مع الناس ، وهم كانوا مجتمعين بعيداً عن المسجد النبوي .

أما غير الأحياء في قبورهم فلا معنى لطلب الدعاء منهم . والتوسل بذاوتهم وبجاههم حكمه حكم التوسل بذوات الأنبياء وجاههم ، والله أعلم بتكريمه لهم فهو وحده الذي يحكم عليهم ، وليس لنا من حكم عليهم في حياتهم إلا بظاهر أعمالهم .

وإذا كان التوسل بحبهم واتباع سلوكهم الطيب فهو من باب توسل الإنسان لله بعمله ، وهو أمر متفق على مشروعيته ، كأصحاب الغار الذين انطبقت الصخرة عليهم فدعوا ربهم بصالح عملهم ، ففرج عنهم .

هذا وقد سئل الشيخ محمد بن عبدالوهاب عن قولهم في الاستسقاء :لا بأس بالتوسل بالصالحين ، وقول أحمد : يتوسل بالنبي ﷺ خاصة ، مع قولهم : إنه لايستغاث بمخلوق ، فقال : فالفرق ظاهر جداً ، وليس الكلام مما نحن فيه ، فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين وبعض يخصه بالنبي ﷺ وأكثر العلماء

ينهى عن ذلك ويكرهه - فهذه المسألة من مسائل الفقه وإن كان الصواب عندنا قول الجمهور من أنه مكروه ، فلا ننكر على من فعله ، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد ، ولكن إنكارنا على من دعا المخلوق أعظم مما يدعو الله تعالى ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبدالقادر أو غيره ويطلب فيه تفريج الكربات وإغاثة اللهفان وإعطاء الرغبات ، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصاً له الدين لا يدعو مع الله أحداً ، ولكن يقول في دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين ، أو يقصد قبراً معروفاً أو غيره يدعو عنده لكن لا يدعو إلا الله مخلصاً له الدين ، فأين هذا مما نحن فيه[1] .

هذه هي فتوى ابن عبدالوهاب ، وذلك كلام ابن تيمة في حملته على التوسل ، ولو رجعنا إلى المقدمة التي وضعناها لهذا الموضوع لأمكننا أن نلتقي جميعاً عند الحقائق المذكورة فيها إذا توافر حسن النية عند المجيزين للتوسل والمانعين له ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل[2] .

س : هل تجوز التسمية بعبد النبي وعبد الرسول؟

ج : لفظ العبد يطلق على الخادم وعلى المطيع ، كما يطلق لفظ السيد على المالك والآمر ، ويطلق لفظ العبد أيضاً على المخلوق كما يطلق لفظ السيد على الخالق ، ولا شك أننا جميعاً عبيد لله وهو سيدنا وخالقنا ، وواجب علينا أن نطيعه . فإذا سمي إنسان بعبد الله أو عبدالرحمن فالمعنى أنه مخلوق لله وللرحمن ، وفي الوقت نفسه يجب أن يطيع الله ويطيع الرحمن كطاعة العبد لسيده . والعبادة والعبودية فيهما معنى التذلل والخضوع ، غير أن الأولى حقيقة دينية والثانية حقيقة كونية .

---

١ - جاء ذلك في فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مجموعة المؤلفات القسم الثالث ص ٦٨ التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

٢ - ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى الجزء الثاني من كتاب ((بيان للناس من الأزهر الشريف)) .

وإذا سمي إنسان بعبد الرسول أو عبدالنبي ، فإن قصد به أنه مخلوق للرسول أوللنبي فذلك كفر ، لأنه لا خالق إلا الله وحده . ويغلب على الظن أن من سمي بذلك لا يقصد به أنه مخلوق للرسول ، ولكن يقصد أنه خادم مطيع للرسول ، كطاعة العبد لسيده والذي يحب الرسول لدرجة أن يسمي ولده بأنه عبدٌ له لا يمكن أن يعتقد أن الرسول هو الذي خلقه ، والحديث يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» .

ومهما يكن من شيء فإن الأولى اختيار أسماء لا تثير شبهة ، والأسماء الحسنة كثيرة وفي الحديث الشريف « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » [1]. وفي صحيح مسلم « إن أحب أسمائكم إلى الله عبدالله وعبدالرحمن» .

س : ما رأي الدين في قول بعض الناس للعالم يا مولانا ، أو لحامل القرآن يا سيدنا ؟

ج : ١- تحدث النووي [2] عن لقب المولى ، فقال : يكره أن يقول المملوك لمالكه: ربي ، بل يقول : سيدي ، وإن شاء قال : مولاي ففي صحيحي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وَضِّئ ربك اسق ربك ، وليقل : سيدي ومولاي . . » وفي رواية لمسلم « لايقل أحدكم : ربي ، وليقل : سيدي ومولاي» .

ثم قال [3] : قال الإمام أبو جعفر النحاس في كتابه « صناعة الكتاب»: أما المولى فلا نعلم اختلافاً بين العلماء أنه لا ينبغي لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين: مولاي . قلت : وقد تقدم جواز إطلاق مولاي ، ولا مخالفة بينه وبين هذا ، فإن النحاس تكلم في المولى -بالألف واللام- وكذا قال النحاس : يقال سيد لغير

---

١ - رواه أبو داود بإسناد جيد. ٢ - الأذكار ، ص ٣٦٠ .

٣- الأذكار ص ٣٦١ .

الفاسق ، ولا يقال السيد - بالألف واللام- لغير الله تعالى - والأظهر أنه لابأس بقوله : المولى والسيد : لغير الفاسق .

٢- وقال النووي [١] اعلم أن «السيد يطلق على الذي يفوق قومه ويرتفع قدره عليهم ، يطلق على الزعيم والفاضل ويطلق على الحليم الذي لايستفزه غضبه ، ويطلق على الكريم ، وعلى المالك ، وعلى الزوج .

وقد جاءت أحاديث كثيرة بإطلاق «سيد» على أهل الفضل ، فمن ذلك ما رويناه في صحيح البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد بالحسن بن علي رضي الله عنهما المنبر فقال «إن ابني هذا سيد ، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» وروينا في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال للأنصار لما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه «قوموا إلى سيدكم أو خيركم» كذا في بعض الروايات «سيدكم أو خيركم» وفي بعضها «سيدكم» بغير شك وروينا في صحيح مسلم أن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقتله .. الحديث ، فقال رسول الله ﷺ «انظروا إلى ما يقول سيدكم» .

وأما ما ورد في النهي فما رويناه بالإسناد الصحيح في سنن أبي دواد أن رسول الله ﷺ قال «لاتقولوا للمنافق سيد ، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل» قال النووي : والجمع بين هذه الأحاديث : أنه لا بأس بالإطلاق : فلان سيد ويا سيدي وشبه ذلك إذا كان المسوَّد فاضلاً خيِّراً ، إما بعلم وإما بصلاح وإما بغير ذلك ، وإن كان فاسقاً أو متهماً في دينه أو نحو ذلك كره أن يقال سيد ، وجمع بين الأحاديث أبو سليمان الخطابي «في معالم السنن» بنحو ذلك .

والخلاصة أنه لا مانع أن يطلق الإنسان لقب مولاي أو سيدي ، أو المولى أو السيد على من يستحق ذلك ديناً ، كالعالم والصالح ومعلم القرآن وزعيم الجماعة وغيرهم

١- الأذكار ص ٣٥٩ .

ممن ذكروا في إطلاقات السيد . أما وصف الفاسق بذلك فمكروه ، إلا إن خيف شره ، أو حصول فتنة فيجوز بمعنى من المعاني البعيدة عن الدين قياساً على ما قيل في كراهة السلام -التحية- على المبتدعين والعصاة الفاسقين ، الذين روى البخاري فيهم عن عبدالله بن عمرو قوله : لاتسلموا على شربة الخمر ، وقال النووي [1] : إن اضطر إلى السلام على الظَّلمة بأن دخل عليهم ، وخاف ترتب مفسدة في دينه أو دنياه أو غيرهما إن لم يسلم - سلَّم عليهم ، قال الإمام أبوبكر ابن العربي : قال العلماء : يسلم وينوي أن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، المعنى الله عليكم رقيب .

س : من المعلوم أن الدعاء يكون لله وأنه صاحب المدد والمعونة لكل من يطلب منه ذلك ، ولكنا نسمع بعض المحبين للأولياء ينادون قائلين : مدد يا حسين ، مدد يا سيد ، بل يقولون : مدد يا رسول الله . فهل في ذلك شرك لله والتجاء لغيره؟

ج : طلب المدد أصلاً يكون ممن يملك المدد ، وهو الله سبحانه كما قال : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر : ٦٠] والحديث الشريف يقول «إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» وهناك مدد يمكن أن يطلب من غير الله ، كطلب معونة من غني ، أو علم من عالم ، أو شفاعة من ذي جاه ، وهذا جائز لا مانع منه .

أما الطلب من الميت فلا معنى له ، فهو عاجز والأمر كله بيد الله ، ولئن كان الرسول ﷺ حيًّا في قبره كما جاء الحديث «الأنبياء أحياء في قبورهم» فإن الطلب منهم مباشرة لا يكون إلا بطلب وساطتهم له وشفاعتهم عنده ، وهذا ما يمكن أن يقوموا به ، أما شفاء المريض وقضاء حاجة المحتاج فلا يملكه إلا الله سبحانه . ومن العبث أن نطلبه من غيره .

---

١ - الأذكار ص ٣٥٤ .

وإذا كان المدد المطلوب هو ما يكون يوم القيامة من الشفاعة مثلاً فهو لايكون إلا بحب هؤلاء الصالحين ، وحبهم يقتضي السير على مناهجهم . وهذا فيه رجاء أن يفيد منه الإنسان فالمرء يحشر مع من أحب .

هذا ما أراه لنفي الشرك بالله ، وبيان الوسيلة الصحيحة التي يستجاب بها الطلب ويحقق الرجاء .

س : هل صحيح أنه لايجوز أن يقول الإنسان : ما شاء الله وما شاء فلان؟

ج : روى أبو داود بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال « لاتقولوا : ما شاء الله وما شاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » .

قال الخطابي وغيره : هذا إرشاد إلى الأدب ، وذلك أن الواو للجمع والتشريك ، وثم للعطف مع الترتيب والتراخي ، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه .

وجاء عن إبراهيم النخعي أنه كان يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ويجوز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك . قالوا : ويقول : لولا الله ثم فلان لفعلت كذا ، ولا نقل: لولا الله وفلان .

هذا وقد جاءت روايات أخرى أخرجها النسائي وابن ماجه وأحمد في هذا الموضوع ، تحدث عنها ابن حجر ، فيمكن الرجوع إليها [1].

س : من التقاليد الحديثة عند افتتاح جلسة تشريعية أو قضائية أن يقال : بسم الله وباسم الشعب ، فهل هذه الصيغة مشروعة ؟

ج : معروف أن تسمية الله مستحبة عند الشروع في أي عمل خيري ، رجاء أن يبارك الله فيه ، وجاء في ذلك قول مأثور « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله

---

١ - فتح الباري ج١١ ص٥٤٨ .

الرحمن الرحيم فهو أقطع » أي ناقص غير تام وقليل البركة ، وجاء النص على استحبابها عند دخول البيت وعند الخروج وعند تناول الطعام ولبس الملابس وعند الوضوء ودخول المسجد وغير ذلك .

فالذي يفتتح الجلسة يتبرك بذكر اسم الله تعالى مستعيناً به راجياً التوفيق ، وعند قوله : وباسم الشعب أو باسم المؤسسة يريد أن النشاط الذي يمارس أو الثمرة الناتجة عن ذلك هي بإذن من الشعب أو المؤسسة ولمصلحته ، وليس نشاطاً شخصيًّا ولا تقصد منه مصلحة شخصية . ويغلب ذلك في النظام الديمقراطي ، وليس الديكتاتوري ولا التيوقراطي .

وحتى لا يكون هنا شبه إشراك للشعب مع الله في المعونة على هذا النشاط أو في النتائج المترتبة عليه يستحسن أن يقال : باسم الله نبدأ ، ثم باسم الشعب نباشر النشاط أو نفتتح الجلسة ، على ضوء ما يقال في المشيئة ، فقد روى أبو داود بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال « لاتقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم ما شاء فلان » .

فالذي يقصد بقوله التبرك فقوله مشروع ، بل مندوب ، لأنه تقرب إلى الله . والذي يقصد بقوله « وباسم الشعب » التقرب إلى الشعب واستمداد العون منه فقوله مرفوض ، كالذين يتقربون عند الذبح بأسماء الأصنام والآلهة الأخرى . وإذا كان القصد كما قدمنا فلا بأس بذلك ، فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى كما ثبت في الحديث ، ولا ينبغي التسرع بالإنكار أو الحكم بالكفر على مجرد قول ذلك .

س : هل زيارة الأضرحة مشروعة أو ممنوعة؟

ج : الأضرحة جمع ضريح ، والضريح هو الشق وسط القبر . وتعارف الناس عليه إذا دفن فيه شخص له قيمة دينية أو غيرها من القيم التي تحتل من نفوس الناس مكانة كبيرة ، واتخذت الأضرحة شكلاً معيناً من البناء تعلوه قبة تفنن الناس في شكلها وفي زخرفتها .

وكثرت هذه الأضرحة في مصر منذ عهد الفاطميين الذين أقاموا كثيراً منها لآل البيت وكبار رجال الدولة ، وعرفت بالمشاهد أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة من العلويين . ثم جاءت الدولة الأيوبية وأقامت مثلها لكبار رجال السنة . ومن أكبرها ضريح الإمام الشافعي .

والأضرحة شأنها شأن سائر القبور في أن زيارتها سنة لما فيها من فوائد للزائر والمزور ، ففيها للزائر عبرة وعظة ، كما في قول النبي ﷺ : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة» . وقوله : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه ، فزوروها فإنها تذكر الآخرة» . وقد صح في مسلم أذن الله لنبيه بزيارة قبر أمه ، وعدم إذنه في الاستغفار لها .

وفي الزيارة نفع للمزور بالسلام عليه والدعاء له ، وبما تقدم ذكره من أنس الميت بمن يزوره . وقد علمنا النبي ﷺ آداب الزيارة التي منها أن نقول ما علمه السيدة عائشة رضي الله عنها : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» . وجاء في إحدى الروايات لهذا الحديث «نسأل الله لنا ولكم العافية» .

س : هل هناك فرق بين الكفر والشرك ؟

ج : الكفر فيه معنى الستر ، وقد يكون ستراً ماديًّا وستراً معنويًّا ، ومن الستر المعنوي جحود النعمة وعدم الاعتراف بالجميل ، يقول الراغب الأصفهاني في «المفردات» وأعظم الكفر جحود الواحدانية أو الشريعة أو النبوة ، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً ، ثم يقول : والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها . وقد يقال :كفر ، لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله عليه . قال تعالى ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] والشرك يقول عنه الراغب الأصفهاني فيه معنى الاشتراك في شيء مادي أو معنوي ، وهو في الدين ضربان ، أحدهما الشرك العظيم ،

وهو إثبات شريك لله تعالى ، وهو أعظم كفر لأنه جحد الوحدانية ، والثاني الشرك الصغير ، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وهو الرياء والنفاق ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] وقوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] محمول على الشركين . وأما قوله تعالى ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ٥] فأكثر الفقهاء يحملونه على الكفار جميعاً ، وقيل هم غير أهل الكتاب .

والخلاصة : أن الشرك كفر بوحدانية الله وعدم إخلاص العبادة لله ، والكفر يطلق على الشرك لأنه جحود بالوحدانية ، ويطلق على من يكذب بالنبوة وعلى من يكذب الشريعة فالكافر أعم من المشرك والكفار والمشركون مصيرهم النار خالدين فيها أبداً[1].

س : ترد على فكر الإنسان خواطر كثيرة قد يكون بعضها خطيراً فهل يحاسب عليها ، وكيف يتخلص منها ؟

ج : إن للشيطان مداخل كثيرة لإغواء الإنسان ، وأشد ما يهتم به العقيدة ، لأنها إذا انحرفت انحرف السلوك كما صح في الحديث « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[2] .

والنفس مرتع خصيب لوسوسة الشيطان ، فقد تمر عليها أفكار وخواطر كثيرة ، بعضها يمر عابراً لا يمكث إلا قليلاً ، وبعضها يأخذ حيزاً من تفكير الإنسان ثم يمضي ، وبعضها الآخر قد يثبت ويرسخ ويدفع للتنفيذ .

وإذا كانت هذه هي طبيعة النفس البشرية التي خلقنا الله عليها فإنه - وهو العليم اللطيف الخبير - تجاوز عن كل هذه الخواطر ولايؤاخذ عليها ؛ إلا في حالتين :

١- ومن أراد الاستزادة من المعرفة فليرجع إلى الجزء الأول من كتاب ((بيان للناس من الأزهر الشريف)) ص ١٣٨ ففيه بيان الفروق بين الكفر والفسوق والعصيان والنفاق .

٢- رواه البخاري ومسلم .

الأولى : إذا عزم الإنسان عليها عزماً أكيداً وصمم على تنفيذها ، بدليل حديث الصحيحين : البخاري ومسلم « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « كان حريصاً على قتل صاحبه » .

والحالة الثانية : إذا نفذ ما عزم على تنفيذه ، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به »[1] .

ومحل المؤاخذة على العزم على السيئة ، وإن لم يفعلها ، إذا كان المانع من فعلها عجزاً أو خوفاً من رقيب من الناس ، لكن إذا كان المانع من تنفيذ ما عزم عليه خوفاً من الله فلا يؤاخذه ، بل قد يعطيه ثواباً على مجاهدة نفسه ، وبهذا يوفق بين ما قد يكون في بعض النصوص من تضارب في الظاهر .

بعد هذا نقول : إن من خواطر السوء ما جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول له : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله وَلْيَنْتَهِ » وقد سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال « تلك محض الإيمان » وفي رواية « صريح الإيمان » بمعنى أن الخوف من هذه الوسوسة يدل على الإيمان الخالص ، لا أن الوسوسة تكون من الإيمان .

وقد بيَّن الحديث الدواء الناجع لهذه الوسوسة ، وهو الاستعاذة بالله والانتهاء عن التمادي فيها والركون إليها ، وذلك من وحي قوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] .

وإذا استعاذ الإنسان الضعيف بالله القوي كان ذلك دليلاً على عبوديته الخالصة له ، والله يقول للشيطان الذي أقسم أن يغري الناس أجمعين ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] ويوضح هذا ما حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد؟ قال : أجاهده . قال :فإن عاد ؟ قال : أجاهده . قال : هذا يطول ، قال : أرأيت لو

---

١ - رواه الجماعة في كتبهم الستة كما قال ابن كثير في تفسيره.

مررت بغنم ينبحك كلبها ومنعك من العبور ما تصنع؟ قال : أكابده وأرده جهدي قال : هذا يطول عليك ، لكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك . فالاستعانة بالله القوي سبيل لطرد وساوس الشيطان .

س : هل كلَّم الله تعالى عبدالله بن حرام بدون حجاب ، وهل تناقض ذلك مع قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[الشورى: ٥١]؟

ج : عبدالله هذا هو عبدالله بن عمرو بن حرام ، استشهد يوم أحد . وروى البخاري أن ابنه جابراً بكاه شديداً ، ونهاه الصحابة ولكن النبي ﷺ لم ينهه عن البكاء ، ولكن قال «ماتبكيه وما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع» .

وروى أبو بكر بن مردويه البيهقي أن النبي ﷺ لما استشهد عبدالله قال لابنه جابر «ما لي أراك مهتمًّا»؟ قال :يا رسول الله استشهد أبي وترك دَيْناً وعيالاً ، فقال «ألاأخبرك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كِفاحاً - قال عليٌّ : الكفاح المواجهة - فقال : سلني أعطك ، قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل : إنه سبق القول مني أنهم إليها لايرجعون . قال: أي رب فأبلغ من ورائي ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾)) [آل عمران : ١٦٩] .

وفي رواية للبيهقي قال النبي ﷺ لجابر « شعرت أن الله أحيا أباك فقال : تمن عليَّ عبدي أعطك »[1].

وآية ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى : ٥١] سبب نزولها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال النبي ﷺ «إن موسى لم ينظر إليه» .

---

١ - أسد الغابة مجلد ٣ ص ٣٤٧ ، تفسير ابن كثير مجلد ٢ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

ومعنى « وحياً » نفثاً في القلب فيكون إلهاماً ، ومنه حديث « إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » جاء بعبارات متقاربة رواها الحاكم وغيره ، ومن وراء حجاب كما كلم موسى ، وإرسال الرسول هو جبريل يكلم الأنبياء .

وحصر كلام الله لغيره في هذه الأحوال الثلاثة هو في كلامه في الدنيا للبشر ، أما في الآخرة فلا مانع أن يكون كلامه لهم مباشرة وكفاحاً أي مواجهة ، كما حصل مع عبدالله بن عمرو بن حرام ، وكما يحصل من كلام الله سبحانه لأهل الجنة حين يقول لهم : « أرضيتم عني »؟ فليس هناك تناقض بين الآية وكلام ابن حرام .

س : هل هناك تعارض بين الآيتين الكريمتين قال تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] وقال تعالى ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤]؟

ج : أما الآية الأولى ففي تفسير اليوم رأيان :

١- أنه من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض ، كما روي عن ابن عباس ومجاهد .

٢- أنه من أيام الآخرة ، بمعنى أن يوماً من الخوف والشدة في الآخرة أو في النعيم كألف سنة عن سنى الدنيا .

وأما الآية الثانية ففي تفسير المعارج ثلاثة أقوال :

١- المعارج هي الرتب الخاصة بعظمة الله وعلوه ومراتب نعمه كما قال ابن عباس وقتادة .

٢- معارج السماء هي درجاتها أو مصاعدها ، لأن الملائكة تعرج إلى السماء كما قال مجاهد .

٣- المعارج هي الغرف التي جعلها الله لأوليائه في الجنة .

والملائكة تعرج إلى أمكنتها في السماء ، أو إلى عرش الله في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة . قال وهب : ما بين أسفل الأرض إلى العرش مسيرة خمسين ألف سنة وهو قول مجاهد ، وجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥] فقال : قوله في سورة المعارج هو من منتهى أمره من أسفل الأرض إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسون ألف سنة ، وقوله في سورة السجدة ، يعني ذلك نزول الأمر من السماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد ، فذلك مقدار ألف سنة ، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، فالصعود والهبوط يساوي ألف سنة .

وقيل المراد يوم القيامة ، أي مقدار الحكم فيه لو تولاه مخلوق خمسون ألف سنة ، قال عكرمة : وقيل يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ثم يدخلون النار للاستقرار كما قال ابن عباس .

يقول القرطبي : وهذا القول أحسن ما قيل في الآية ، واستدل بحديث قال فيه النبي ﷺ عنه « والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا » [١] كما استدل بحديث « ما من رجل لم يؤد زكاة ماله إلا جعل الله شجاعاً من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضي الله بين الناس » [٢] ويؤيده ما قيل - وروى مرفوعاً - أن زمن حساب المؤمن ما بين الظهروالعصر ليكون في الجنة مستقرًّا وأحسن مقيلا .

وعن ابن عباس : هي أيام سماها الله وهو أعلم بها كيف تكون وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم .

وقيل : المراد بالخمسين التمثيل لبيان طول المدة في الموقف ، كعادة العرب في وصف أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر .

---

١ - رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه .

٢ - رواه البخاري ومسلم.

هذا ، وقد جاء في تعليق اللجنة العلمية بالمنتخب في تفسير القرآن الكريم [1] ما نصه :

يسبق القرآن بهذه الآية الكريمة - كألف سنة - ركب العلم بتقرير أن الزمن نسبي ، وأن فكرة الزمن العالمي المطلق الذي كان يسلم به الأقدمون قبل ظهور النسبية هي فكرة خاطئة .

وبعد فهذا بعض ما قيل في التوفيق بين المدد المختلفة لليوم الذي عند الله ، والآراء مختلفة ، وما نسب إلى ابن عباس من أنه يكل علمها إلى الله هو في رأيي أحسن ، لأنه ترف ذهني وانشغال بما لا طائل تحته في حياتنا الحاضرة وإن كنا نعمل الحساب ليوم القيامة لما فيه من الشدة والهول .

س : ما هو أول ما خلق الله سبحانه وتعالى في الوجود ؟

ج : جاء أن بعض الناس يقولون إنه نور سيدنا محمد ﷺ ، وأن الأحاديث الواردة في ذلك أحاديث آحاد ولم يتفق على صحتها ، فلا تصلح لبناء عقيدة عليها .

وإضافة لما ذكر أقول : روى عبدالرزاق بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء ، قال « يا جابر فإن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره - فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى ، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس فلما أراد الله أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء ، فخلق من الجزء الأول القلم ، ومن الثاني اللوح ، ومن الثالث العرش . ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الجزء الأول حملة العرش ، ومن الثاني الكرسي ،

---

١ - الذي أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ص ٤٩٥ .

ومن الثالث الملائكة . ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول السموات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار . ثم قسم الرابع أربعة أجزاء ، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم ، وهي المعرفة بالله ، ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ...» إلى آخر الحديث.

وقد اختلف : هل القلم أول المخلوقات بعد النور المحمدي ؟ فقال الحافظ أبويعلى الهمداني : الأصح أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح عن عبدالله ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » فهذا صريح في أن التقدير وقع بعد خلق العرش ، ووقع عند أول خلق القلم ، لحديث عبادة بن الصامت مرفوعاً « أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء » رواه أحمد والترمذي وصححه . ورويا أيضاً من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً « إن الماء خلق قبل العرش » وروى السُّدِّي بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء ، فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور المحمدي والماء والعرش . انتهى .

هذا ما ذكره القسطلاني [1] ولم يعلق هو ولا شارحه الزرقاني على هذه الأحاديث ، إلا حديث عبدالله بن عمرو ، فقد رواه مسلم ، وحديث عبادة الذي رواه أحمد ، بل ذكر الزرقاني بسند واهٍ أن القلم طوله خمسمائة عام ، وعرضه كذلك ، وسنُّه مشقوقة ينبع منه المداد . وفي خبر مرسل أنه من لؤلؤ ، وطوله سبعمائة عام .

إن كل هذه الأخبار لا تثبت بها عقيدة ولا يضرنا الجهل بها ، ولا نسأل عنها أمام الله إلا بمقدار ما أفدنا من هذه المخلوقات لتحقيق الخلافة في الأرض . فلنترك ما وراء ذلك لعلم الله تعالى ، ونضع أمام أعيننا قوله سبحانه ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ

---

١ - المواهب اللدنية ، ج١ ص ٩ ، ١٠ .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف : ٥١] وقوله ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩].

س : هل صحيح أن الله سبحانه كان وحده ولا شيء معه ، ثم خلق العالم ليقروا له بالألوهية ، وماهو أول شيء خلقه من العالم؟

ج : جاء في شرح المواهب اللدنية [١] حديث رواه البخاري أن وفداً من أهل اليمن أتوا الرسول ﷺ وقالوا له : جئنا للتفقه في الدين ونسألك عن هذا الأمر - أي الحاضر الموجود - فقال « كان الله ولـم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض » ومعنى هذا الحديث أن الله كان في الأزل منفرداً متوحداً ، وكان الماء والعرش مبدأ خلق هذا العالم ، لأنهما خلقا قبل السموات والأرض ، فلم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء ، والمراد بالذكر اللوح المحفوظ .

ويؤخذ من قصة هذا الحديث أن الكلام في أصول الدين وحدوث العالم مستمر ، كما جاء في فتح الباري لابن حجر ، وقلنا: إن هذه الأخبار لاتثبت بها عقيدة ، ولا نسأل عنها أمام الله إلا بمقدار ما أفدنا من هذه المخلوقات لتحقيق الخلافة في الأرض ، فلنترك ما وراء ذلك لعلم الله تعالى ، ولنضع أمام أعيننا قوله سبحانه : ﴿مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[الكهف:٥١] وقوله ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩] هذا ، ولم أعثر على ما يتردد على الألسنة (كنت كنزاً مخفيًّا فخلقت الخلق فبي عرفوني)[٢].

١- الزرقاني ((ج٤ ص ٣١)).

٢- انظر جواب أنيس منصور في أهرام ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٥ ، وفيه عجز الإنسان عن معرفة أول خلق الكون الذي نراه ، فالأكوان غيره كثيرة . وما قاله العلماء عن الذرة ، وما قاله العالم الأمريكي ((أدوين هابل سنة ١٩٢٠م)) عن تباعد المجرات وتمدد الكون .

ثم أقول : إن النصوص في ترتيب مخلوقات الله لاتعطي حكماً قاطعاً ، لأن في ظاهرها تضارباً ، فبعضها لا يفيد تقدم خلق إحداها على خلق الأخرى ، حيث جاء العطف فيها بالواو ، وهي - كما يقول العلماء - لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ، مثل ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] وبعضها جاء العطف فيه أحياناً بحرف «ثم» الذي يفيد الترتيب والتراخي ، وقدَّم خلق الأرض مثل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] ومثل ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] وإن كان الظاهر منها أن السماء كانت دخاناً قبل أن يستوي الله إليها ، فهل كان الدخان قبل الأرض؟ وبعض النصوص قدم فيها خلق السماء مثل ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات:٢٧-٣٢] وقوله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود : ٧] وحديث الرسول ﷺ «كان الله ولاشيء معه وكان عرشه على الماء» .

وأمام هذه النصوص اختلفت أقوال المفسرين الناقلين عن السُّدِّي والكلبي وقتادة ، والراوين عن ابن عباس وغيره . يقول القرطبي [1] والله أعلم بما فعل ، فقد اختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

فرأى بعضهم خلق السماء أولاً ، ورأى بعضهم خلق الأرض أولاً ، وحاول بعضهم التوفيق بين هذه النصوص فقال : أول شيء خلقه الله هو الماء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] . وفي سنن ابن ماجه أن أبا هريرة قال للرسول ﷺ : أنبئني عن كل

---

١ - تفسير القرطبي ، ج١ ص ٢٥٧ .

شيء ، فقال «كل شيء خلق من الماء» وفي تفسير القرطبي [1] عن ابن عباس أن الرسول قال «أول شيء خلقه الله القلم وأمره أن يكتب كل شيء يكون» قال البيهقي : المراد أول شيء خلقه بعد خلق الماء . وروى أيضاً موقوفاً عن عبادة بن الصامت .

وكان عرشه على الماء ، فهل كان العرش مخلوقاً قبل الماء ، لأنه مظهر سلطان الله تعالى ، أو الماء كان مخلوقاً قبل حتى يستقر العرش عليه ، ثم بعد ذلك فتق الله الماء فجعل منه جزءاً أرضاً بتجميده ، وجزءاً سماءً ببخار صعد منه؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ويكون قوله عن الماء إنه جعل منه كل شيء جملة حالية وليست دالة على أنه خلق بعد الأرض والسموات . ثم خلق الأرض كتلة جامدة - وتجميدها كان في يومين ، ويومين آخرين جعل فيها رواسي وأنهاراً ، وأمدها بالأقوات في يومين آخرين تتم أربعة أيام ، ثم سوَّى السماء وهي دخان ، فجعلها سبع سموات في يومين آخرين ، فتكون الأيام ستة . ثم بعد ذلك شكّل الأرض تشكيلاً أخيراً بدحوها وتيسير العيش عليها . ويكون قوله ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [النازعات : ٣١ ، ٣٢] إخباراً عن الماضي وبياناً عن فضله على الناس بمجموع هذه النعم ، وهي الخلق والدحو والجبال والمياه ومرتبطاً بقوله ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [النازعات : ٣٣] .

في تفسير القرطبي [2] (دحاها) بسطها ، وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء. ثم ذكر [3] أن كلمة (بَعْد) قال بعضهم : إنها في موضع (مع) مثل ﴿ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ وقولهم : أنت أحمق وأنت بعد ذلك سيئ الخلق . وقيل (بعد) بمعنى (قبل) قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] أي من قبل القرآن .

ولم يأت في القرآن للأرض عدد صحيح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ورويت في ذلك أحاديث . ففي مسلم « من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوّقه إلى سبع أرضين» رواه سعيد بن زيد .

١- ج١ ص ٢٥٧ ، ٩٥٨ .
٢- ج١٩ ص ٢٠٤ .
٣- ج١٩ ص ٢٠٥.

وجاء في تفسير القرطبي [1] عن حديث مسلم : قال البيهقي: زعم أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ ، لمخالفة ما عليه أهل التفسير والتاريخ . وطعن في رواية علي بن المديني . وذكر حديث عبدالله بن سلام -السابق- خرجه البيهقي . وقيل عدد الأرض : هي سبع لم تفتق ، وقيل : فتقت وبين كل أرض خمسمائة سنة ، كما في حديث الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً .

وتفصيل هذه الأيام بالنسبة للأسبوع قيل :خلق الأرض في يومي الأحد والاثنين ، وقدّر الأقوات في يومي الثلاثاء والأربعاء ، وسوَّى السماء سبعاً في يومي الخميس والجمعة . وذلك قول عبدالله بن سلام .

وأما حديث مسلم « خلق التربة يوم السبت » كما في القرطبي [2] رواه السدى عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب الرسول ، قال : إن الله كان عرشه على الماء ، ولم يخلق قبل الماء شيئاً ، ولما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً ارتفع فوق الماء وسما عليه فسمّاه سماء . ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين «الأحد والاثنين» وخلق الجبال والأقوات وما ينبغي لها في يومين « الثلاثاء والأربعاء » ثم استوى إلى السماء التي كانت واحدة ثم قصفها سبع سموات في يومين «الخميس والجمعة» وأوحى في كل سماء أمرها .

عن أبي هريرة : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : خلق الله عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الخير يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة وآخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ما بين العصر إلى الليل .

١- ج٦ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
٢- ج٦ ص ٣٨٤ ، ص٣٦٣.

س : هل صحيح أن أعمال الناس ترفع إلى السماء يوم الاثنين والخميس؟

ج : روى الترمذي حديثاً قال : إنه حسن ، أن النبي ﷺ قال : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم » وفي هذا دليل على ندب الصوم في هذين اليومين ، وكان ﷺ يصومهما ، كما جاء التصريح بذلك في رواية ابن ماجه عن أبي هريرة . وعرض الملائكة أعمال العباد على الله في هذين اليومين أمر تنظيمي وضعه الله سبحانه لحكمة يعلمها هو ، وإن كان هو يعلم كل ما في الكون دون حاجة إلى كتابة الملائكة ورفع ذلك إليه سبحانه ، وهناك حديث رواه النسائي يدل على أن الأعمال ترفع في شهر شعبان ، وكان الرسول يحرص على صيامه كله أو صيام أكثره لأنه يحب أن يرفع عمله وهو صائم ، فما هي الصلة بين رفع الأعمال في شعبان ورفعها في كل أسبوع مرتين في يومي الاثنين والخميس؟

إن رفع الأعمال مرتين كل أسبوع لايقصد به إخبار الله بها فهو كما قلت - غني عن هذه الوسائل ولعل القصد منه حث العباد على الطاعة وتحذيرهم من المعصية ، فالمتابعة مستمرة حاضرة غير غائبة ، وقد يوضح ذلك عمل امتحانات للمتعلمين في أثناء السنة الدراسية ، حتى لا يتكاسلوا عن المذاكرة إلى أن يقرب امتحان آخر العام فهناك يكون الجد والتعب ، لأن نتيجته هي المهمة .

وعلى هذا الضوء يمكن فهم المقصود من عرض الأعمال في الأسبوع مرتين ، تمهيداً للعرض العام في كل سنة في شهر شعبان ، ثم العرض الأكبر يوم القيامة ليقرأ كل إنسان ما كتب عليه ، ويعرف النتيجة النهائية للنشاط الذي باشره طول حياته في الدنيا .

والزرقاني في شرحه للمواهب اللدنية عن الصيام في شهر شعبان ورفع الأعمال أشار إلى أن هذا الرفع هو رفع خاص ولم يوضح الخصوصية التي فيه ، فلنترك الأمر لله ولنقبل على الطاعة ولنبادر بالتوبة من المعصية ، حتى تبيض وجوهنا يوم العرض على الله سبحانه .

س : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] ؟ .

ج : أبسط تفسير لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى قادر مريد لو شاء أن يجعل كل الأنفس الحية من إنس وجن وغيرهما مؤمنة مطيعة لفعل .

وذلك بأن يخلقهم من مادة أو عنصر لايكون منه الكفر والعصيان ، كالملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لأنهم خلقوا من نور ، ولكنه سبحانه وتعالى قدر أن تكون هناك مخلوقات قابلة للإيمان والكفر ، يصدر منها الطاعة والعصيان وذلك بمحض إرادتها واختيارها ، دون تدخل من الله سبحانه ، إلا بمجرد الأمر والنهي وبيان الخير والشر . فمن آمن وأطاع أدخله الجنة ، ومن كفر وعصى أدخله النار ، وذلك بعد الحساب الدقيق على ما قدموا في دنياهم ، وهذه المخلوقات الحرة المختارة لما تفعل هي الإنس والجن .

ولا يجوز أن نفهم من هذه الآية أن الله هو الذي تحكم فينا فجعل منا المؤمن والكافر وقد أراد لنا ذلك فكيف يعذبنا على ما اقترفنا .

نعم إن الله هو الذي خلقنا على هذا الطراز وبالاستعداد للإيمان والكفر ولكن بمحض إرادتنا نحن واختيارنا لما وقع منا :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : ٢] ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] .

ولو فرض أن الله هدى كل نفس للإيمان ما كان هناك معنى لاستحقاق الجنة حيث لا يكون عمل من هذه النفس بل هو عمل الله وما كان هناك معنى لإرسال الرسل لهداية الناس إلى الخير ، فنظام الحياة الدنيا لايصلح له إلا من يأتي منه أن يقول : نعم وأن يقول : لا ، وذلك هو الإنس والجن بما منحوا من عقل وحرية واختيار ، وبما جاءهم من وحي يرشد إلى الصواب .

والموضوع فيه كلام طويل للعلماء عن مذهب الجبرية والقدرية ، فيرجع إليه في كتب التوحيد .

س : علمنا أن الله سبحانه وتعالى يحب المحسنين والمتقين والصابرين ، ولايحب الكافرين والظالمين ، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد ، وإذا كان كل ذلك بمشيئته فكيف يرضى الله ويشاء ما لا يرضى به ولايحبه؟

ج : لا بد من الفرق بين الرضا والمشيئة ، فالرضا يدل على الحب والمثوبة ، أما المشيئة فتدل على الإرادة ، وإرادة الله سبحانه في خلقه لايعلمها إلا هو ، يريد الخير ويريد الشر ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] وقال : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] ولاتعرف الإرادة إلا بوقوع المراد . ولكنه لا يرضى ولايقبل الشر ، قال تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] فكل شيء بإرادته سبحانه ولكن ليس كل شيء يريده يرضى عنه ويحبه ، وهو لا يأمر إلا بالخير ولاينهى إلا عن الشر ، حتى لو كان الشر في علم الله لكنه لايأمر به ، ليكون ارتكابه بحرية العبد واختياره فيجازي على ذلك.

س : قرأنا في الكتب أن محاجة حدثت بين آدم وموسى وأن آدم غلبه لأنه اعترض على قضاء الله فكيف يصح ذلك؟

ج : روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «احتج آدم وموسى فقال له موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدر الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى» وجاء هذا الحديث بروايات أخرى .

المراد بقوله : خط لك بيده ، ألواح التوراة ، والأربعون سنة هي ما بين قوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] إلى نفخ الروح فيه ، أو هي مدة لبثه طيناً إلى أن نفخت فيه الروح . وقد تحدث شراح الحديث وكثرت أقوالهم لتوضيح الصلة بين قدر الله ومسئولية العبد وخلاصة أقوالهم ما يأتي :

أنكر القدرية هذا الحديث لأنه يثبت القدر وهم لا يقولون به ، إذ لو صح لاحتج كل مخالف بالقدر السابق ، ولو ساغ ذلك لانسدَّ باب القصاص والحدود ولاحتج به كل أحد على ما يرتكب من الفواحش ، والمثبتون للحديث ردوا عليهم ، ووضحوا كيف كانت الغلبة لآدم على موسى بقولهم :

أ- إن موسى كان له مثل حال آدم حيث قتل نفساً لم يؤمر بقتلهاوتاب الله عليه كما تاب على آدم ، قال تعالى ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢] وقال في شأن موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ [القصص : ١٦] وليس من اللائق أن يلوم أحد غيره على حال وقع مثلها له .

ب- إن اللوم على المخالفة يكون مشروعاً إذا كان قبل التوبة ، أما بعدها فلا فائدة تذكر منه .

ج- إن لوم موسى لآدم كان بعد موته وانتقاله من دار التكليف إلى دار الجزاء ، حيث كان لقاؤهما على أرجح الأقوال في البرزخ بعد موت موسى ، فالتقت أرواحهما في السماء كما جزم بذلك ابن عبدالبر والقابسي ، وإذا كان الله قد لام آدم في الدنيا بقوله : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢] وهو أكرم من أن يثني العقوبة على عبده كما ورد ، فلا يسوغ لموسى أن يؤنب آدم ، والله سبحانه بكرمه لا يؤنبه بعد موته ، وقد ورد أيضاً النهي عن التثريب على الأمة التي زنت وأقيم عليها الحد .

هذا ولايجوز أن يكون هذا الحديث متكأ لمن يقترف معصية ، فإذا وجه إليه اللوم يقول : هذا قدر الله ، كما قال آدم ، وذلك لأن من كان باقياً في الدنيا دار التكليف تجرى عليه الأحكام من لوم وعقوبة ونحوهما .

قال النووي : في ضمن كلامه على هذا الحديث [1] : ولأن اللوم على الذنب شرعي لا عقلي ، وإذا تاب الله تعالى على آدم وغفر له زال عنه اللوم ، فمن لامه كان

١- شرح صحيح مسلم ج١٦ ص٢٠٢.

محجوباً بالشرع ، فإن قيل : فالعاصي منا لو قال : هذه المعصية قدرها الله عليَّ لم يسقط عنه اللوم والعقوبة بذلك وإن كان صادقاً فيما قاله ، فالجواب أن هذا العاصي باقٍ في دار التكليف جار عليه أحكام المكلفين من العقوبة واللوم والتوبيخ وغيرها ، وفي لومه وعقوبته زجر له ولغيره عن مثل هذا الفعل ، وهو محتاج إلى الزجر ما لم يمت ، فأما آدم فميت خارج عن دار التكليف وعن الحاجة إلى الزجر ، فلم يكن في القول المذكور له فائدة ، بل فيه إيذاء وتخجيل . والله أعلم .

س : وردت نصوص يؤخذ منها أن الدعاء يرد القضاء وأن صلة الرحم تزيد في العمر ، فكيف يكون ذلك مع أن قضاء الله واحد وعلمه لا يتغير ؟

ج : روى الحاكم وصححه وابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال : «لايرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ...»[1] . وجاء في حديث البزار والطبراني والحاكم «لايغني حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان[2] إلى يوم القيامة» .

قال العلماء في هذا : إن القضاء نوع من علم الله تعالى بما سيكون عليه حال العبد قبل خلقه ، ومنه قضاء مبرم لابد من وقوعه لا يدفعه ولا يرفعه شيء ، ومنه قضاء معلق في وقوعه أو رفعه على شيء ، فالموت مثلاً قضاء مبرم لابد منه ولا يدفعه شيء ، وطول العمر قضاء معلق على فعل ، مثل صلة الرحم وعمل خير آخر ، كما في حديث «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»[3] .

ومن هذا النوع المعلق أن يعلم أن الله سبحانه أن شيئاً سيحصل للعبد عند دعائه ، وأن مرضاً سيصيبه لا يبرأ منه إلا بالدعاء والعلاج ، فكل حركات العبد

---

١ - رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، أي رواه راوٍ واحد فقط .
٢ - معنى يعتلجان : يتصارعان ويتدافعان .
٣ - رواه أحمد وغيره .

والكون معلومة مكشوفة لله تعالى ، ولكنها مغيبة عنا ، ولذلك أمرنا بطاعته ، ومن الطاعة الدعاء الذي يؤكد الإنسان فيه إيمانه بضعفه وحاجته إلى الله ، وقد عبر عن هذا في الحديث بأنه العبادة أو مخ العبادة ، فإذا حصل الدعاء وتم ما أراد الله كانت إرادته مرتبطة بدعاء العبد كما علمها من قبل ، وما دام القضاء مغيباً عنا فعلينا امتثال أمر الله في الدعاء وغيره ، ولو علمنا ما قدر لنا ما كان هناك معنى للتكليف ولركدت حركة الحياة .

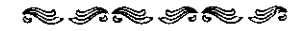

س : هل الإنسان مسير أم مخير ؟

ج : الله سبحانه خلق الإنسان وعلم ما سيكون عليه من خير وشر ، وجعله قابلاً للطاعة والمعصية ، وكلفه بأمور ينفذها وترك له الحرية في اختيار التنفيذ وعدم التنفيذ ، ليكون محاسباً أمام الله على ما فعله بحريته واختياره من طاعة أو معصية ، والإنسان لا يعلم ما قدر له في علم الله إلا بعد وقوع المقدر ، ولو أقدم على فعل محرم متعللاً بأنه مقدر عليه فهو مخطئ في هذا التعلل ، لأنه ربما يحول بينه وبين فعل المحرم حائل يمنعه ، وهنا يعلم أنه لم يُقدر عليه .

فالإنسان مخير في الأمور التكليفية التي يستطيع فعلها أو تركها بحريته واختياره ، أما الأمور التي لاتقع تحت حريته واختياره ، كالكوارث العامة من الزلازل والبراكين والعواصف والسيول وغيرها فهو فيها ميسر .

ثم أقول : لماذا يكثر السؤال في هذا الموضوع ، وبخاصة من يقول : إن المعاصي مقدرة علينا فلماذا نعاقب عليها ونحن مرغمون لا مفر لنا من القضاء والقدر ؟ إن الله سبحانه علم أن أبا لهب لن يؤمن بسيدنا محمد ، ومع ذلك أمر الله نبيه أن يطلب منه الإيمان ، ليكون إيمانه وعدم إيمانه بحريته واختياره ، فاختار أبو لهب الكفر ، واستمر على ذلك حتى مات كافراً ، وهنا علم تماماً أن الله سبحانه قضى في علمه أن أبا لهب سيختار الكفر ويموت عليه .

ثم أقول : لماذا يسأل الناس عن تقدير المعاصي لتبرير فعلها لأنها قضاء الله حتى لا يعاقب عليها ، ولا يسأل عن تقدير الطاعات ، ويطالب بالثواب عليها ، مع أن المعاصي والطاعات مقدرة في علم الله؟ إن الإنسان هنا في الطاعات حريص على أن ينال الثواب على طاعته لأنها عمله . وفي المعاصي حريص على أن يفر من العقاب على معصيته لأنها ليست عمله -في ادعائه- بل مقدرة عليه .

لاينبغي أن يغالط الإنسان نفسه ، فهو مسئول عن كل شيء فعله بحريته واختياره من خير أو شر ، قال تعالى ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] وقال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] إن الأمر لو كان كما يريد هؤلاء من تقدير كل الأمور علينا وعدم الحساب عليها ما كانت هناك حاجة إلى إرسال الرسل ولا إلى البعث ولا إلى الحساب ولا إلى الجنة والنار .

س : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب الضلال على الإنسان فلماذا يعاقبه عليه؟

ج : سبق الكلام على ذلك بعنوان : هل الإنسان مسيَّر أو مخيَّر . وزيادة على ذلك نقول :

من الآيات التي وردت في الهداية والضلال قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر : ٣١] وقوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] .

بقراءة هذه الآيات وأمثالها دون تدبُّر قد يفهم الإنسان منها أن الهداية والضلالة موكولتان إلى إرادة الله سبحانه ، وهو لا يسأل عما يفعل وليس للإنسان اختيار فهو مسيَّر لا مخيَّر ، وبالتالي لماذا يعذبه الله على الضلالة التي هي من فعل الله لا من فعل الإنسان؟

لاينبغي أن يغالط الإنسان نفسه ، فهو مسؤول عن كل شيء صدر منه بحريته واختياره من خير أو شر ، وهذه المسئولية مقررة في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه :

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور : ٢١] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨] ولو أن الأمر كان كما يفهم البعض من تقدير كل الأمور علينا وعدم الحساب عليها لَعَمَّت الفوضى وعشنا كالمخلوقات غير المسئولة ، وما كانت هناك حاجة إلى إرسال الرسل ولا إلى البعث بعد الموت والحساب على الأعمال والجزاء بالجنة والنار . لقد علم الله سبحانه - قبل أن يخلق الإنسان - أنه سيختار الهداية أو الضلالة بحريته ، فكتب في اللوح المحفوظ أنه من المهتدين أو الضالين ، فليس هناك تحكّم واستبداد في الجزاء ، فالله سبحانه حكيم خبير متصف بكل صفات الكمال وأمرنا أن نتخلق بها كما جاء في بعض الآثار .

ولو تأملنا في الآيتين الثانية والثالثة اللتين في صدر هذا الكلام لرأينا أن الضلال هو للفاسقين الذين اختاروه بحريتهم ، وأن الهداية هي لمن أناب ورجع إلى الله بحريته ، وهذا الاختيار مطابق لما علم الله سبحانه وكتبه في اللوح المحفوظ ، ونقول: لماذا يتمسك بعض الناس - وهم الكافرون والعاصون - بأن الكفر والعصيان لا يصح أن يعذّب عليهما الإنسان لأن الله كتبهما عليه ، ولا حرية ولااختيار له في ذلك ، وعلى العكس يتمسك المؤمنون والطائعون بحقهم في الثواب بالجنة على إيمانهم وطاعتهم ، لأنهما من عمل الإنسان بحريته واختياره ، فالعاصي يريد أن يتهرب من المسئولية والمطيع يتمسك بها ؟

لقد ضل كثير من الناس في فهم قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة : ١٣] فقال الجبريون : الخلق كلهم مجبورون في طاعتهم ، بناء على قوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان : ٣٠] وقال المعتزلة : الهداية مربوطة بمشيئة العباد فهم خالقون لأفعالهم ، بناء على قوله تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير : ٢٨] .

والحق أن هناك أموراً نحن مضطرون إليها دون اختيار ، وأمور تقع باختيارنا وإرادتنا ، وعلى الثانية يكون الثواب العقاب . وقد مثّل القرطبي في تفسيره [1] لذلك

١- ج١٤ ص ٩٧ .

بحركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ، وبين حركة الاختيار إذا حركها بحريته ، فالأولى مضطر إليها بعيدة عن المؤاخذة ، والثانية هي مناط المؤاخذة .

إن الواجب في قراءة النصوص في القرآن والسنة أن نعرف أن اللغة العربية سخية بالألفاظ والمعاني ، فقد يكون للفظ الواحد عدة معان مختلفة ، لكل مقام ما يناسبه منها ، وهناك الأساليب المتعددة في التعبير لا بد من الإحاطة بها حتى يصح الفهم ويمكن الاستنباط الصحيح ، وقد بيّن ابن القيم في كتابه « بدائع الزهور » أربعة معانٍ لكل منها مكانها المناسب .

إن الهدى والضلال في العقيدة والسلوك مرتبطان بالحرية والاختيار للأسباب المؤدية إليهما ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾ [الإسراء : ١٣ - ١٥] وبالله التوفيق .

س : في دعاء القنوت عن النبي ﷺ « وقني شر ما قضيت » فهل يقضي الله بشر؟

ج : قضاء الله كله خير وإن كان في نظر الإنسان شرًّا ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ولذلك يجب الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، والإنسان إذا طلب من الله أن يقيه القضاء الشر فالشر بالنسبة له وبتقديره هو كالمرض والفقر ، وفي الحق كما يعلم الله إنه خير ، لأنه سبحانه حكيم وخبير ولطيف ورحيم ، وما يصدر عنه كله خير من هذه الزاوية .

وقد جاء أن من الناس من لا يصلحهم إلا الفقر ، والآية تقول : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى:٢٧]

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يؤكد أن كل ما يقضي به الله خير وإن كان في نظرنا شرًّا بالنسبة لنا ، على أن العبارة المذكورة في السؤال «وقني شر ما قضيت» بعدها مباشرة «فإنك تقضي ولا يقضى عليك» أي أن الله هو الذي يحكم على كل فعل من أفعال العباد بالحكم الصحيح بخير أو شر ، ولا يجوز أن يقضي أحد على حكمه سبحانه فيصفه بأنه خير أو شر ، فكل فعله سبحانه خير .

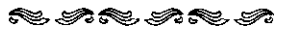

س : هل الإيمان كسبي للإنسان دخل فيه أم وهبي لا دخل للإنسان فيه؟

ج : الإيمان هو التصديق بالقلب بما جاء به النبي ﷺ وهذا التصديق أو الاعتقاد إن صدق دفع الإنسان إلى العمل واستقام سلوكه ، وكل عمل بدون إيمان لا قيمة له عند الله ، كعمل المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلاً .

والإيمان المجرد من العمل إيمان ناقص ، كجذر الشجرة التي ليس لها فروع ولا ثمار ، أما الإيمان الذي يتبعه عمل فهو إيمان كامل مع التفاوت في الكمال ، كالشجرة المورقة المثمرة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

والإسلام يحب من المؤمن أن يكون إيمانه كاملاً بالطاعات ليسعد في دنياه وأخراه ولايحب منه أن يكون ناقص الإيمان لتعرضه لعقاب الله على المعاصي إن لم يتب عليه ويغفر له .

والهداية إلى الإيمان التصديقي والإيمان العملي القائم عليه هي توفيق من الله سبحانه ، لكن لكل شيء سبب ، فعلى الإنسان أن يسعى إليه ويجتهد في تحصيله ، والله يهديه إلى ما يريد ، أما بدون السعي ورغبة فلا يستحق من الله هداية ، فإذا قال الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص : ٥٦] فالمعنى

أن التوفيق للإيمان والطاعة لايملكه إلا الله ، يعطيه لمن سلك السبيل إليه ، والرسول لايعطي هذا التوفيق ، فما عليه إلا الدلالة عليه ، وهي المرادة بالهدى إذا نسب إليه في مثل قوله تعالى ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] والله يهدي الناس السبيل ببيان طريق الخير وطريق الشر ، ومن أخذ الأسباب لسلوك طريق الخير هداه الله أي وفقه ، ومن أخذ الأسباب لسلوك طريق الشر أضله الله ، كما قال سبحانه ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

فالإيمان كسبي ووهبي ، كسبي بسلوك السبيل إليه ، ووهبي بتوفيق الله له ، إن صدقت نيته ، وقانون الحياة قائم على الأسباب والمسببات ، تحت مشيئة الله سبحانه ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [التكوير : ٢٩] ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس : ١٠٨] .

س : هل صحيح أن النبي ﷺ قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وهل المراد تشجيع العمل الدنيوي لكسب الرزق ، وعدم الارتكان على تقدير الأرزاق وعدم التواكل والكسل . وما صلة ذلك بالقضاء والقدر؟

ج : مبدئيًا نقول : إن الإسلام يشجع العمل والكفاح من أجل الحصول على الرزق الذي تكفل الله به بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] وضمنه قبل خلق الأحياء عليها كما قال في خلق السموات والأرض ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت : ٩ ، ١٠] قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك : ١٥] كما يشجع كل عمل مشروع يحقق السعادة للإنسان في دنياه وأخراه ، ويرشد إلى التنسيق بين الأنشطة الدنيوية والأخروية ، كما قال سبحانه ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] وكما صح في الحديث « إن لربك عليك حقًّا ولبدنك عليك حقًّا ولأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذي حق حقه» إلى غير ذلك من النصوص التي جمعت أكثرها في رسالة لي عن العمل والعمال في نظر الإسلام .

والحديث المسئول عنه رواه مسلم في صحيحه ، فقد سئل النبي ﷺ : فيم العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل ؟ فقال : « بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » قالوا : ففيم العمل ؟ فقال : « من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ [الليل : ٥ - ٧] .

والمراد أن الإنسان لا يعلم ما قُدِّرَ له ، أي كشفه الله بعلمه قبل أن يخلقه ، وهذا العلم ليس ملزماً له ، وعليه أن ينفذ ما أمره الله به ، وذلك بحريته واختياره ليكون الجزاء مرتبطاً بما اختاره بحريته وإن كانت آليات الفعل من خلق الله سبحانه . هذه الإجابة مختصرة لإجابات عن أسئلة سبقت بعناوين مختلفة ، مثل : هل الإنسان مسير أو مخير ، هل الإيمان كسبي أو وهبي ، القضاء والدعاء وعمل البر ، القضاء والقدر ، ومحاجة آدم موسى .

س : هل أطلع الله أحداً على علم الغيب ؟

ج : مما يتصل بالعقيدة الإيمان بالغيب ، كما قال تعالى في وصف المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة : ٣] . وقد وردت نصوص تتحدث عن الغيب منها : قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] وصح في الحديث الذي رواه البخاري أنها خمس ، وهي التي جاءت في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] وقوله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ

رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] وقوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

والغيب ما قابل الشهادة ، أي ما يغيب على الإنسان العلم به ومنه ما يمكن التوصل إليه بالوسائل المختلفة ، كالمسروق يعرف بالبحث عنه ، والمجهول يعرف بالتعلم ، كالكهرباء والفيروسات وما إليها ، ومنه ما لايمكن التوصل إلى معرفته بالوسائل العادية بل لا بد فيه من خبر صادق ، كأحوال الآخرة ، التي يجب أن نؤمن بها لورودها في القرآن والسنة .

ومن الغيب قيام الساعة وما ذكر في مفاتح الغيب ، وقد يعرف شيء منها بإطلاع الله سبحانه عليها من يرتضيه من الرسل ، كما نصت على ذلك الآية .

والإيمان باختصاص الله بعلم مفاتح الغيب واجب بدليل الحصر في قوله : ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام : ٥٩] . ومن ادعى عدم اختصاصه بذلك كفر ، لأنه كذب القرآن الكريم الصريح في الدلالة عليه ، ومن حاول معرفة هذه المفاتح ليشارك الله فيها كفر أيضاً ، أما من يحوم حولها مؤمناً بأنه لن يصل إلى العلم اليقيني بها فلا يكفر ، ومعلوماته التي يصل إليها من وراء هذه المحاولة معلومات ظنية لايقينية ، والفرق بين علم الله تعالى ومعارف البشر يتركز في نقطتين أساسيتين ، أولاهما أن علم الله عن أي شيء شامل لجميع ما يتصل بهذا الشيء ، والثانية أن علمه سبحانه يقيني لا ظني . أما علم غيره من البشر فلن يجمع الأمرين معاً ، لا في الكم ولا في الكيف ، قال تعالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء : ٨٥] ، وقال: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم : ٢٨] . ولئن حصل علم بشيء عن شيء فهو علم قاصر .

وقد حاول الإنسان أن يبحث عن المجهول المستقبل منذ خلق وفيه غريزة حب الاستطلاع ، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة ، واتخذ وسائل متعددة ، وكان من هذه الوسائل ما عرف باسم الكهانة والتنجيم والعرافة والطيرة والطرق وضرب الرمل وقراءة الفنجان وقياس الأثر وما يبتكر غير ذلك .

وفيما يلي تعريف بكل منها :

١- **الكهانة** : هي ادعاء علم الغيب ، بالإخبار عن المضمرات ، أو عن المغيبات في مستقبل الزمان بأية وسيلة من الوسائل ، وقد تختص بما كان فيه اتصال بالجن[١] .

٢- **التنجيم** : وهو الاستدلال بالنجوم في مواقعها وتحركاتها على ما سيكون في المستقبل من مطر أو حر أو برد أو مرض أو موت وغير ذلك ، وقيل هو الكهانة[٢] .

٣- **العرافة** : هي ادعاء معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها كالمسروق من الذي سرقه ، والضالة أين مكانها ، وقيل هي السحر[٣] .

٤- **الطيرة** : - بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن - وهي مصدر تطير ، مثل تخير خيرة ، ولم يجيء من المصادر هكذا غيرهما - ومعناها التشاؤم بالشيء ، أو الاستدلال من طيران الطائر ، أو من رؤية شيء أو سماع صوت على ما سيحصل للإنسان ، وقد كان العرب يزجرون الطير من أماكنها . فإن طارت يميناً استبشرت ، وإن طارت شمالاً تشاءمت ، ويقال لها أيضاً «العيافة» من عاف عيفا ، وسيجيء حديث عن الفرق بين الطيرة والفأل .

٥- **الطرق** : وهو الضرب بالحصا أوالودع ، وقيل : هو الطيرة وقيل : ضرب الرمل .

٦- **ضرب الرمل** : وهو وضع خطوط وعلامات على الرمل ، لمعرفة ما يخبأ للإنسان ويعرف أيضاً بالخط ، روى مسلم أن النبي ﷺ سئل عنه فقال : «كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خطه فذاك» وكذب ابن القيم نسبة الخط إلى إدريس عليه السلام ، وجاء في تفسيره : أن «الحازي» أي المحترف لذلك يأتيه الرجل ليعرف حظه ، فيخط على أرض رخوة خطوطاً كثيرة بالعجلة ، ومعه غلام ، ثم يمحو منها على مهل خطين خطين والغلام

(١ ، ٢ ، ٣) يراجع شرح النووي على صحيح مسلم ج٥ ص٢٢ .

يقـول : ابني عيان ، أسرعا البيان ، فإن بقى خطان فهما علامة النجح ، وإن بقى خط واحد فهو علامة الخيبة ، ويقول ابن الأثير في « النهاية » : إنه علم معروف فيه تصانيف ، ويعمل به الآن ، ولهم في اصطلاحات ، يستخرجون به الضمير وغيره ، وكثيراً ما يصيبون فيه (هكذا يقول) [١].

٧- **قراءة الفنجان** : وهي الاستدلال بآثار القهوة على الفنجان على ما يفكر فيه شاربه ، ويزعم بعض المعاصرين أن أثر الزفير على القهوة يعطي مؤشرات صادقة ، لكن إذا كان ذلك من الناحية الطبية أو العضوية فهل تمكن معرفة المستقبل ؟ فيه كلام .

٨- **قياس الأثر** : وهو أخذ قطعة من ثياب الإنسان أو متعلقاته وقياسها بالشبر والأصابع ، والاستدلال بذلك على ما يكون لصاحبه .

وهذه الأشياء وأمثالها نهى الإسلام عنها ، لأنها تتنافى مع اختصاص علم الله بالغيب يقول النبي ﷺ « ليس منـا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن لـه ، أو سحر أو سحر له ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[٢] ويقول « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزله الله على محمد ، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاة أربعين ليلة[٣] ، ويقول « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »[٤] ويقول « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدق بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[٥] ويقول « من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد »[٦] ويقول : « العيافة والطير والطرق من الجبـت »[٧] والجبت ما عبد من دون الله .

١- يرجع فيه إلى شرح النووي على صحيح مسلم ، ج٥ ص ٢٣.
٢- رواه البزار بإسناد جيد والطبراني بإسناد حسن دون قوله ((ومن أتى كاهناً)) .
٣- رواه الطبراني .
٤- رواه مسلم .
٥- رواه أصحاب السنن الأربعة والحاكم وصححه .
٦- رواه أبو داود وابن ماجه .
٧- رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه .

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن الجن لايعلمون الغيب ، فيكف يصدقها من يعتمد على أخبارها؟ قال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]. والاتصال بالجن ممكن ، وكذلك استخدامهم في بعض الأغراض ، فقد سخرهم الله لسليمان كمعجزة ، فلا مانع من تسخيرهم لغيره ، ولم يرد نص يمنع ذلك ، وقد حدث لبعض الناس بطرق يعرفونها ، ووضح ذلك المحدث الشبلي في كتابه «آكام المرجان» .

يتبين من هذه النصوص أن الاعتقاد بأن غيرالله يعلم الغيب علماً يقينيًّا شاملاً كفر بما جاء في القرآن الكريم خاصًّا بذلك ، ومن مارس هذه الأعمال ينسحب حكمه على من يلجأون إليه لمعرفة الغيب ، فمن صدقه فقد كفر ، ومن لم يصدقه فقد ارتكب إثماً عظيماً ينقص من إيمانه ، ولا يقبل الله صلاته أربعين يوماً .

روى الشيخان أن ناساً سألوا النبي ﷺ عن الكاهن أو الكهان فقال «ليسوا بشيء» فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثونا أحياناً بشيء أو بالشيء فيكون حقًّا ، فقال رسول الله ﷺ « تلك الكلمة من الوحي يخطفها الجني فيقرها - أي يلقيها- في أذن وليه ، فيخلط معها مائة كذبة » وجاء في البخاري « إن الملائكة تنزل في العنان ، وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضي في السماء ، فيسترق الشيطان السمع فيسمعه ، فيوجه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ».

هذا وقد أبدلنا بهذه الأمور وسيلة يمكن بها أن نطمئن لما نقدم عليه من عمل ، وهي صلاة الاستخارة مع دعائها المعروف الذي جاء به الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ولنسمع قول الله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

تنبيهات

التنبيه الأول : عن علم الساعة :

سبق بيان أن علم الساعة من مفاتح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، والآيات القرآنية كثيرة في ذلك ، وكذلك الأحاديث النبوية الصحيحة ، التي من أقواها حديث جبريل حين سأل النبي ﷺ عنها ، فقال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ثم ذكر له بعض علاماتها .

ومع ذلك حاول بعض الناس قديماً وحديثاً معرفة موعدها ، وأثبت الواقع خطأهم ، ثم جاءت نحلة البهائية أخيراً وزعمت أنها تعرف موعد قيام الساعة بناء على أمرين ، أولهما سر العدد ١٩ والثاني بعض آيات من القرآن الكريم ، وفيما يلي تفصيل ذلك والرد عليه .

أولاً : العدد ١٩ المذكور في قوله تعالى في وصف جهنم : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ٣٠] . زعموا أن له سرًّا حاولوا أن يثبتوه بحصر الحروف الموجودة في بعض السور ، أو في فواتحها من الحروف المقطعة أو في بعض الكلمات ، وبطريق التعويض عن الحروف بأرقام على النظام اليهودي في الأبجدية حددوا وقت قيام الساعة .

ويرد على هذا بأن القرآن فيه أعداد أخرى كالعشرة والمائة والألف وغيرها ، فلماذا اختاروا هذا العدد بالذات؟ وبأنهم لم يتبعوا المنهج العلمي عند حصر الحروف ، فأسقطوا بعضها ليتم لهم ما يريدون ، كما كشف عن ذلك المتبعون للحصر الذي أعلنوه ، وبأن أية مجموعة كبيرة من الأعداد يمكن التوصل منها إلى مجموعات تقبل القسمة على أي عدد من الأعداد ، وليس شرطاً أن يكون العدد ١٩ ، وذلك من البديهيات عند علماء الرياضة[1] ، كما زعموا أن اليهود أخبروا النبي ﷺ بأن حروف « الم » تدل على عدد السنوات التي تعيشها دعوته ولم ينكر عليهم ذلك . وهذا خبر مدسوس ليس له سند يعتمد عليه .

١- بحث الدكتور علي حلمي موسى أستاذ الفيزياء الرياضية بكلية العلوم جامعة عين شمس ، المنشور بجريدة اللواء الإسلامي : عدد ١١٦ في ٧ من رجب ١٤٠٥هـ (٢٨/ ٣/ ١٩٨٥م) .

ثانياً : استدلوا من القرآن الكريم بآيتين ، أولهما قول الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٧] قالوا: إن قوله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يفيد أن بعضاً قليلاً من الناس يعلمون موعد الساعة ، وهم من هذا القليل . ويرد عليهم بأن نفي العلم عن أكثر الناس منصب على الإيمان بما سبق في الآية ، من اختصاص علم الله بها ، وبأنها ثقيلة ولاتأتي إلا بغتة ، فأكثر الناس وهم الكافرون يجهلون هذه الحقيقة المقررة في الآية ، ولا معنى لما فهموه من أن أكثر الناس جاهلون بموعد الساعة والقليل يعلمه ، ففي فهمهم لأول الآية وآخرها تضارب ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك .

ومع احتمال فهمهم هذا فالاستدلال به ساقط ، لأنه ليس هو الفهم الوحيد المتعين لها ، ومعلوم أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

والآية تدل بصراحة على نفي علم أحد بالساعة ، أي بوقت حدوثها ، فذلك من اختصاص الله وحده ، وذلك واضح في قصر علمها عليه سبحانه بأكثر من أسلوب ، وفي أنها تأتي بغتة ، وفي عدم علم النبي ﷺ بذلك . فلا بد من توافق آخر الآية مع هذه المقررات الصريحة فيها . ونفي علم أحد بموعدها يستوي فيه القليل والكثير من الناس .

والآية الثانية التي استدلوا بها هي قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] . قالوا إن فعل «كاد» إذا كان مثبتاً يدل على نفي ما بعده ، فمن يقول : كدت أقع يدل على أنه لم يقع ، وعلى هذا فمعنى «أكاد أخفيها» أنه لم يخفها ، فتمكن معرفتها بطريق أو بآخر ، وليس حتماً أن يكون ذلك عن طريق الوحي فقط كما قال تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] بل يمكن أن يكون بطريق الحساب أو بغيره .

ويرد على ذلك بأن الفعل «خفى» يستعمل في اللغة للستر وللإظهار ، فهو من الأضداد ، يقال :خفاه يخفيه خفياً ، من باب رمى . وخُفِيا أيضاً -بضم الخاء وكسر الفاء- وفي بعض القراءات «أخفيها» بفتح الهمزة ، وكما أن الخفي الثلاثي يفيد الستر

والإظهار كذلك يفيدهما الإخفاء وهو مصدر الفعل الرباعي أخفاه . وعلى هذا فالآية ليست دليلاً قاطعاً على مدعاهم ، فقد يكون معناها : أكاد أظهرها ، بل يجب المصير إلى هذا المعنى لتتوافق الآيات بعضها مع بعض ، والمتشابه يرد إلى المحكم كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٧].

وهؤلاء في قلوبهم زيغ يبتغون الفتنة ، حيث تمسكوا بالمتشابه ولم يأبهوا بالمحكم الذي يجب رده إليه ، وليسوا من الراسخين في العلم على أي وجه يكون الوقف في الآية « مذهب السلف ومذهب الخلف » لأنهم في محاولتهم لتقديس العدد ١٩ خالفوا المنهج العلمي وزيفوا ، وفي عدم رد المتشابه إلى المحكم ظهر جهلهم بأصول البحث ، ولم يؤمنوا بما جاء في القرآن الكريم نصًّا في عدم علم أحد بالساعة إلا الله سبحانه .

وبهذا يظهر أن استدلال هؤلاء استدلال واه ضعيف أو فاسد لايثبت مدعاهم ، ولم يعتبروا بمن سبقهم ممن زعموا علم الساعة وحددوا موعدها فافتضح أمرهم ، وليس المهم هو معرفة وقت قيامها بل المهم هو الاستعداد لها ، وقيامة كل إنسان موته أو عقب موته ، فمن مات فقد قامت قيامته ، لأنه لا عمل بعد الموت ، بل جزاء وحساب ، كما في القيامة الكبرى . وقد نبه النبي ﷺ من سأله عنها إلى الاستعداد لها ، فكل من الموت والقيامة يأتي بغتة ، روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ متى الساعة؟ فقال« ما أعددت لها »؟ قال : حب الله ورسوله ، قال «أنت مع من أحببت» .

التنبيه الثاني : عن العلم بما في الأرحام :

مما اختص الله بعلمه : ما في الأرحام ، كما سبق في الآية ، وكما قال تعالى أيضاً: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] .

ولاينافي ذلك ما يقال : إن بعض الناس توصلوا إلى معرفة نوع الجنين قبل أن يولد من بطن أمه ، وهو ما يزال في الرحم حتى أيامه الأولى ، ذلك أن علم الله بما في الأرحام علم شامل ، وفي الوقت نفسه علم يقيني لا ظني ، فالله يعلم المولود قبل أن يولد ، بل قبل أن يتكون أصلاً ، يعلمه علماً شاملاً ، ويخبر الملائكة ببعض ما يعلمه عنه ، وهم لايعلمون عنه شيئاً قبل أن يخبرهم الله به ، كما قال سبحانه عنهم : ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة : ٣٢] .

جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[1] . وفي بعض الروايات « ذكر أم أنثى » بدل « عمله » .

فلو فرضنا أن الإنسان عرف نوع الجنين فهل يعرف ما بقى من رزقه وأجله وما تنتهي إليه حياته من سعادة أو شقاء ، على أن معرفة نوع الجنين لاتيسر في كل الحالات ، بل في فترة معينة ، أما الله سبحانه وتعالى فيعلم ذلك كل وقت ، بل قبل أن يتكون الجنين كما قلنا ، وعلم الله بذلك علم يقيني لايتطرق إليه الشك ، وعلم الإنسان ظني وأحياناً يتخلف ، ولبعض الناس شواهد لمعرفة نوع الجنين لاتعدو أن تكون ظنوناً[2].

التنبيه الثالث : عن التنجيم :

ينبغي الفرق بين التنجيم وعلم النجوم أو الفلك ، فالتنجيم حدس واستنباط لايقوم على أسس علمية صحيحة لاتخطئ ، أما علم النجوم فهو علم يدعو إليه

---

١ - رواه البخاري ومسلم .

٢ - انظر كتاب منهج الإسلام في تربية الأولاد .

الدين لمعرفة أسرار الكون والإيمان بالله أو تعميق الإيمان به ، وقد جاءت الآيات الكثيرة تدعو إلى التفكر في خلق السموات والأرض ، والإفادة من مسخرات الكون ماديًّا وأدبيًّا .

يقول ابن حجر الهيتمي[1] : والمنهي عنه من علم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان ، لمجيء المطر ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغير الأسعار ونحو ذلك ، يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب لاقترانها وافتراقها وظهورها في بعض الأزمان ، وهذا علم استأثر الله به لا يعلمه أحد غيره ، فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق ، بل ربما يؤدي به إلى الكفر .

أما من يقول : إن الاقتران والافتراق الذي هو كذا جعله الله علامة ، بمقتضى ما اطردت به عادته الإلهية ، على وقوع كذا وقد يتخلف فإنه لا إثم عليه بذلك ، وكذا الإخبار عما يدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف بها الزوال وجهة القبلة ، وكم مضى وكم بقى من الوقت ، فإنه لا إثم فيه ، بل هو فرض كفاية.

وفي حديث الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في أثر سماء -أي مطر- كانت في الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : «أتدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال: «قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا -أي وقت النجم الفلاني- فذلك كافر بي ، مؤمن بالكوكب».

قال العلماء : من قال ذلك مريداً أن النوء هو المحدث والموجد فهو كافر ، أو أنه علامة على نزول المطر ، والذي ينزله هو الله وحده ، لم يكفر ، ويكره قول ذلك ، لأنه من ألفاظ الكفرة ، والمهم أن يكون الاعتقاد صحيحاً في أن الله هو فاعل كل شيء ، وأنه وراء الأسباب جميعاً ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وما يصل إليه الباحثون ويستنتجونه هو ظن قد يصدق بعضه ويتخلف البعض الآخر .

١- الزواجر : ج٢ ص١١٠ .

التنبية الرابع : عن الطيرة والفأل :

سبق القول بأن الطيرة أو التطير يقوم على الربط بين ما يحصل للإنسان في المستقبل وبين رؤية شيء أو سماع صوت ، والتشاؤم نوع من التطير إذا كان رد الفعل مكروهاً ، ويقابله التفاؤل والفأل إذا كان رد الفعل مقبولاً ، وقد تستعمل هذه الألفاظ بعضها مكان البعض الآخر .

والباعث عليه هو رغبة الإنسان في معرفة ما يغيب له ، وهو قديم تحدث عنه القرآن الكريم ، فقال عن ثمود قوم صالح عليه السلام ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] وعن قوم موسى عليه السلام ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٣١] وعن أصحاب القرية التي بعث إليها أصحاب عيسى عليه السلام ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ - ١٩] .

وكان معروفاً عند العرب في الجاهلية ، وبخاصة في طيران الطير أو زجره أو زجر الوحوش وإثارتها ، فما تيامن منها سموه « السانح » وما تياسر سموه « البارح » وما استقبلهم سموه « الناطح » وما جاءهم من الخلف سموه « القعيدة أو القاعد » . ومن اشتهر عندهم بمعرفة ذلك يسمونه « العائف أو العراف » ومنهم عراف اليمامة والأبلق الأسيدي وعروة بن زيد .

ومنهم من كان يقدح فيه ولا يعترف به ، كالمرقش السدوسي وجهم الهذلي ، وجاء في ذلك قول المرقش :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحائم
فإذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خير ولا شر على أحد بدائم
لا يمنعنك من بغاء الخير تعاقد التمائم
قد خط ذلك في السطور الأوليات القدائم

والواقي هو الصرد - نوع من الطيور - والحائم هو الغراب .

يقول ابن القيم : من اهتم بذلك أسرع إليه التأثر ، وكثر وسواسه فيما يسمعه ويراه ويعطاه ، فإذا أهدى إليه سفرجل أو سمع اسمه تشاءم وقال : سفر وجلاء ، وهكذا ، وذكر عدة حوادث في ذلك .

وقد ذم الله التطير وحكاه عن قوم هم أعداء الرسل ، ومعنى طائركم وطائرهم ما قضى وقدره عليهم بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وهو راجع عليهم ، وذمه النبي ﷺ في حديث الصحيحين عن الذين يدخلون الجنة بغير الأحاديث بقوله «ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» وفي غير ذلك من الأحاديث التي سبق ذكرها . وجاء في مسلم أن معاوية بن الحكم السلمي قال : يا رسول الله ، ومنا أناس يتطيرون ، فقال « ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه ، فلا يصدنه » . فبين أن تأثيرها ليس من ذاتها ، بل من الإنسان نفسه الذي يعتقد فيها .

ومع نهي النبي ﷺ عن الطيرة كان يحب الفأل الحسن ، ففي الصحيحين « لاعدوى ولا طيرة ، وأحب الفأل الصالح » وفي لفظ « وخيرها الفأل » وفي لفظ « وأصدقها الفأل » ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « إذا أبردتم إليَّ بريداً فاجعلوه حسن الاسم حسن الوجه » وله في الفأل حوادث ، منها اختيار من اسمه « يعيش » ليحلب الناقة ورفض من اسمه « حرب » ، وأخبر عمر عن سبب ذلك ونفى أنه تطير فقال « ظننت يا عمر أنها طيرة ، ولا طير إلا طيره ، ولا خير إلا خيره ، ولكن أحب الفأل » وكره المرور يوم بدر بطريق فيه جبلان لم يعجبه اسمهما ولا اسم الساكنين فيه . وفي الصحيحين أنه قال « الشؤم في ثلاث ، في المرأة والدار والدابة » وفي الموطأ أنه أمر امرأة بالتحول من دارها لما أصابهم فيها من مكروه .

وقد علق ابن القيم على ذلك بأن الفأل ليس فيه شرك بل فيه تقرير لطبيعة الإنسان في حب الخير وكراهية الشر ، كما يحب الصوت الحسن والرائحة الطيبة والأخبار السارة عن الخصب والصحة والانتصار ، مع اعتقاد أن هذه الأمور لاتؤثر أبداً إلا بإذن الله كما في التشاؤم بالدار ، والتشاؤم قد يؤدي إلى الشرك وترك التوكل على الله . أما الفأل فيفضي إلى الأمل والطاعة وتوحيد الله . وقال بعضهم في

الفرق بين التطير والفأل : إن الفأل فيه إبانة عن شيء حاصل في النفس وهو الارتياح الذي ظهر بسماع الاسم الحسن مثلاً ، أما التطير ففيه استدلال على شيء غير حاصل .

وحديث الشؤم روى بوجهين ، أحدهما بالجزم والثاني بالشرط . فالأول « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » والثاني « إن يكن من الشؤم شيء حقًّا ففي الفرس والمسكن والمرأة » فقالت طائفة : لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ، بل علقه على الشرط ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد من طرفيها . وقالت طائفة أخرى : إضافة الشؤم إليها مجاز واتساع ، أي قد يحصل مقارناً لها لأنها هي نفسها مما يوجب الشؤم ، فقد تكون الدار قد قضى الله أن يميت فيها بعضاً من خلقه ، فمن كتب الله عليه الموت في تلك الدار حسن إليه سكناها حتى يقبض فيها . سئل مالك رضي الله عنه عن الشؤم في الدار فقال : إن ذلك كذب فيما نرى ، كم من دار سكنها ناس فهلكوا ، ثم سكنها آخرون فملكوا .

وقال آخرون : إنما يلحق الشؤم من تشاءم منها ، أما من توكل على الله فلايلحقه ضرر منها ، ولذلك نصح النبي ﷺ المرأة أن تتحول عن هذه الدار ما دامت تتشاءم منها ، وهو من باب الرحمة والتيسير ، بدل أن يرغمها على سكناها ونفسها لم تتهيأ لترك الشؤم وللاتكال على الله بعد ، فقد يزيدها ذلك اعتقاداً في التطير وهو شرك ، أو يسلمها إلى الحزن بكراهة الدار ، ولو أرغم من ضاق رزقه في بلد على عدم مفارقتها لكان ذلك هو الحرج الذي لا يرضاه الله لعباده .

ثم يجيب ابن القيم إجابة جامعة عن كل ما نسب إلى الرسول وغيره من الفأل بقوله : إن بين الأسماء والمسميات ارتباطاً بقدرة الله . وألهمه الله للعباد ، وليس ارتباط العلة بمعلولها ، بل ارتباط تناسب وتشاكل ولكل شيء من اسمه نصيب بقدر ما ، ووقوع حوادث مرتبطة بأشياء أخرى هو مصادفة واتفاق وليس على سبيل التسبب والتأثير .

ثم يقول : تعطيل الأسباب تعطيل للشرع ومصالح الدنيا ، والاعتماد عليها كلية شرك بالله تعالى ، فالمقامات ثلاثة : أحدها : تجريد التوحيد وإثبات الأسباب ، وهو

ما جاء به الشرع ، والثاني : الشرك في الأسباب بالمعبود ، والثالث : إنكار الأسباب بالكلية محافظة من منكرها على التوحيد . فالمنحرفون طرفان مذمومان ، إما قادح في التوحيد بالأسباب ، وإما منكر للأسباب بالتوحيد ، والحق غير ذلك ، وهو إثبات التوحيد والأسباب وربط أحدهما بالآخر ، فالأسباب محل حكمه الديني والكوني ، والحكمان عليها يجريان بل عليها يترتب الأمر والنهي والثواب والعقاب ، والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك .

وذكر في التوفيق بين النهي عن الاقتراب من المجذوم وبين أكل النبي معه ، أن النبي ﷺ أثبت السبب وأمر بالفرار ، وأثبت المانع وهو التوكل فأجاز المؤاكلة ، لكن لا يقدر كل أحد على المانع وهو التوكل ، فأرشد إلى مجانبة المجذوم تشريعاً للفرار من أسباب الأذى ، ووضع يده معه تعليم للأمة بدفع الأسباب بما هو أقوى منها ، وإعلام بأن الضرر والنفع بيدالله عز وجل . فالمؤمن إذا وثق بالله لا يضره السبب ، كما قيل عند الطيرة « اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » ثم يمضي لحاجته .

هذا الأثر ذكره ابن القيم في بحثه عن الطيرة والتشاؤم ، روى أبو عمرو في «التمهيد» بسند فيه ابن لهيعة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «من أرجعته الطيرة من حاجته فقد أشرك» قال : وما كفارة ذلك ؟ قال «أن يقول أحدهم ..» وذكر الحديث ، وأورد عن كعب الأحبار مثل ذلك وأنه في التوراة .

س : إذا قتل الإنسان فهل يعتبر موته قبل استيفاء العمر الذي قدره الله له ؟

ج : في كتب التوحيد هذه العبارة «والمقتول ميت بأجله» فالله سبحانه قدَّر له هذا الأجل وعلم أن سبب موته هو القتل ، فالعمر محدود غير متغير في علم الله تعالى ، وما يظهر للملائكة هو أن الإنسان لو وصل رحمه مثلاً طال عمره كما جاء في الحديث ، ولا يعلمون إن كان سيصل رحمه أو لا ، والذي يعلم ذلك يقيناً هو الله وحده .

س : استطاع العلم الحديث أن يعرف نوع الجنين إن كان ذكراً أو أنثى ، فهل يتعارض ذلك مع قول الله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ .

ج : يقول الله تعالى ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد :٨] ويقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان :٣٤] .

لا يتنافى علم البشر بنوع الجنين في بطن أمه مع علم الله بها في الأرحام ، وذلك لأربعة أمور ، **أولها** : أن الله يعلم ذلك قبل أن يتخلق الجنين ، أي قبل أن تتلقح بويضة الأنثى بماء الذكر ، إلى أن يولد ، بل قبل أن يكون هناك الزواج بين الرجل والمرأة ، والطب لا يعرف ذلك إلا بعد إخصاب البويضة بزمن يمكنهم فيه الفحص والاستدلال ، وما يقال : إنهم يعرفون ذلك قبل الإخصاب بفحص ماء الرجل ومعرفة الكروموسومات الغالبة فيه ، فإن هناك عوامل أخرى لا يستطيع العلم التحكم فيها ، وكلها تحت إرادة الله سبحانه ، وما يستنبطونه مقدماً فهو لايعدو مرحلة الظن والتخمين .

ثانيها : أن علم الله بنوع الجنين علم حقيقي لا يتخلف ، وعلم العلماء بذلك علم ظني قد يتخلف ، وبخاصة في الأيام الأولى للحمل .

ثالثها : أن علم الله بالجنين علم شامل لنوعه ورزقه وأجله وسعادته وشقائه ، وذلك غير مستطاع إلا لله سبحانه وتعالى ، الذي قدر كل شيء قبل أن يخلقه .

رابعها : أن علم الله لا يسبقه جهل ، وعلم غيره مسبوق بالجهل .

وبهذه الأمور وغيرها يظل علم الله سبحانه في قدسيته وشموله وصدقه لايدانيه فيه مخلوق من مخلوقاته .

قال تعالى ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام :٥٩] وقد بين الحديث هذه المفاتح بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . . . ﴾ كما رواه البخاري فعلمها قاصر عليه وحده « لا يعلمها إلا هو » وذلك على الوجه المبين فيما تقدم .

س : ما حكم الدين في قراءة الكف ؟

ج : الإسلام أمرنا بالعلم والبحث والنظر ، ووجهنا إلى عدم الظن في كل الأحوال ، وإلى أن تكون معلوماتنا مبنية على الحقائق ما أمكننا ذلك ، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة .

والناس من قديم الزمان لهم طرق في الاستنتاج قد تصح نتائجها وقد تبطل ، ولكنهم مع ذلك مغرمون بحب الاستطلاع ، والوصول إلى معلومات تهمهم عن طريق شواهد ومقدمات ، وسمعنا في ذلك عما يسمى بالكهانة والعرافة والتنجيم وضرب الحصا . . . وشاع في أيامنا ما يعرف بقراءة الفنجان وقراءة الكف .

وقد عكف جماعة على دراسة خطوط الكف عند ما رأوا صدق دلالته في بعض الأحوال فنرى مثلاً الدكتورة إكرام عبدالسلام أحمد أستاذ طب الأطفال بقصر العيني تقول : هناك نوعان من خطوط اليد ، خطوط ثنايا الكف ، وهي واضحة عند النظر إليها وأساسها ثلاثة خطوط ، اثنان عرضيان تحت الأصابع الأربع ، والثالث بحد منطقة الإبهام وهو منحن وهي متشابهة في جميع الناس ، وإذا تغيرت يكون هناك شذوذ ، أما خطوط الأصابع فهي عكس ذلك لا تكاد تتشابه أو لاتتشابه مطلقاً من شخص لآخر ، وعليها الاعتماد في البصمات ، وهي ترى إما بالعدسة المكبرة وإما بالطبع بالحبر .

واكتشفت أن تغير الخطوط الثلاثة في الكف يدل على تأخر عقلي أو اختلاف في الكروموسومات التي تنشأ عنها تشوهات خلقية . وسبب ارتباط ذلك باليد يبدأ تكوينها في الأشهر الثلاثة الأولى مع تكوين أعضاء الجسم ، فأي اختلال في التكوين يظهر فيها .

وقد بحثت ارتباط الخطوط ببعض الأمراض كالتأخر العقلي وروماتيزم القلب وأمراض الجهاز العصبي ، كما يمكن دراسة بعض الأمراض أو التكهن بها من خلال بصمات الأصابع [1] .

---

١ - الأهرام ٢٦/ ٨/ ١٩٧٧م .

وواضح من هذا الكلام أن هذه الخطوط لها ارتباط بالتكوين العضوي لجسم الإنسان وما ينشأ عنه من تأثير في القوى العقلية ، لكن التنبؤ بالمستقبل من النظر في هذه الخطوط هو الذي ما يزال رجماً بالغيب لم تقم له قواعد ثابتة يقينية .

هذا ، وقارئ الكف العالمي (دافيد براندون جونز) حاول أن يربط بين خطوط الكف وبين المستقبل بوجه عام ، وله في ذلك بحوث واطلاعات واستنتاجات كثيرة [1] ولكن كل ذلك لا يتعدى مرحلة الظن ، ولاينبغي الاعتماد على أقوال هؤلاء في رسم الخطوط لحياتنا المستقبلة ، فإن المقدمات غير اليقينية لاتلزم عنها نتائج يقينية .

وقد علمنا النبي ﷺ دعاء الاستخارة في كل ما يهمنا من الأمور ، والأولى الالتجاء إلى الله بها ، فهو وحده مالك الأمر كله ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .

ويثار هنا سؤال : هل أطلع الله رسوله على ما يكون في غد ؟ والجواب ما جاء في قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف :١٨٨] وصح في مسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أن رسول الله يخبر بما يكون في غد فقد أعظم الفرية على الله . وتلت قوله تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل :٦٥] .

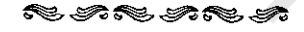

س : ما حكم الدين في الرقى ؟

ج : الرقى جمع رقية ، وهي كلمات يقولها الناس لدفع شر أو رفعه ، أي يحصنون بها أنفسهم حتى لا يصيبهم مكروه ، أو يعالجون بها مريضاً حتى يبرأ من مرضه ، وكان العرب قبل الإسلام يعتقدون أنها مؤثرة بنفسها دون تدخل لقدرة أخرى غيرها ، واختيار كلماتها مبني على اعتقادات قد يرفضها الدين ، ولذلك كان موقف

---

١ - القبس ٤/ ٦/ ١٩٧٩م .

الإسلام منها هو تصحيح الخطأ في الاعتقاد ، وتقرير أنه لا تأثير لها إلا بإرادة الله تعالى ، وكذلك رفض الكلمات التي تتنافى مع العقيدة الإسلامية الصحيحة . فإن كانت كلماتها مقبولة مع اعتقاد أن أثرها هو بإرادة الله سبحانه كان مسموحاً بها ، مثلها مثل الدعاء أو الدواء ، وبهذا يمكن أن نفهم ما جاء من نصوص رافضة أو مجيزة لها .

فمما ورد في رفضها حديث البخاري ومسلم عن الذين يدخلون الجنة بغير حساب الذي جاء فيه «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» وفي رواية لمسلم زيادة «ولايرقون» . فالراقي وطالب الرقية مذمومان ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل على امرأته وفي عنقها شيء معقود ، فجذبه فقطعه ثم قال : لقد أصبح آل عبدالله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» قالوا : يا أبا عبدالرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها . فما التولة؟ قال :شيء تصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن[1]. والتولة بكسر التاء وفتح الواو .

ومما ورد في إجازتها :

أ- حديث الصحيحين من رقية بعض الصحابة بفاتحة الكتاب لسيد الحي الذي لدغ فشفاه الله ، ثم أقرهم النبي ﷺ على فعلهم وما أعطاه إياهم هذا السيد ، وبين أن العلاج بكتاب الله أحق أن يؤخذ عليه الأجر .

ب- حديث الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : أمر النبي ﷺ أن نسترقي من العين .

ج- حديث الصحيحين : كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بقل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يده من جسده .

د- حديث الصحيحين : أنه ﷺ كان يعوذ بعض أهله ، يمسح عليه بيده اليمنى ويقول « اللهم رب الناس أذهب الباس ، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقما » .

١- رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه .

هـ - ما رواه مسلم أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال : يا محمد اشتكيت؟ قال « نعم » فقال جبريل : باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك ، باسم الله أرقيك .

و- ما رواه مسلم أنه ﷺ قال : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » .

ز- ما رواه مسلم عن أنس أن النبي ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة.

ج- ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال لعثمان بن أبي العاص لما اشتكى إليه وجعاً يجده في جسده منذ أسلم « ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل : بسم الله « ثلاثاً » وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

ط- ما رواه أبو داود أنه ﷺ أذن للشفاء بنت عبدالله أن ترقي من النملة بعد أن عرضت عليه ، وقال « لا بأس بها » النملة بكسر الميم بثور في الجنبين ، والحمة ضرر ذوات السموم .

ي- ما رواه ابن ماجه أنه ﷺ أذن لعمارة بن حزم في الرقية من الحية بعد أن عرضت عليه ، وقال « لا بأس بها » .

قال النووي في الجمع بين الأحاديث الناهية عن الرقى والمجيزة لها : أن المنهي عنه هو الرقية بكلام الكفار ، والرقى المجهولة والتي بغير العربية وما لا يعرف معناها ، فهي مذمومة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أومكروه ، وأما الرقى بآيات القرآن والأذكار المعروفة فلا نهي عنها بل هي سنة[1] وقد روى مسلم عن النبي ﷺ «اعرضوا عليَّ رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك».

وقال ابن حجر في فتح الباري : أجمع العلماء على جواز الرقية عند اجتماع ثلاثة شروط : أن تكون بكلام الله أو بأسمائه أو صفاته ، وباللسان العربي أو بما معناه من غيره ، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها ، بل بتقدير الله[2] .

١- شرح صحيح مسلم ، ج١٤ ص ١٩٦ .
٢- نفثات صدر المكمد للسفاريني : ج٢ ص٦٤٢ .

س : ما حكم الدين في التمائم ؟

ج : التمائم جمع تميمة ، قال الحافظ المنذري : يقال إنها خرزة كانوا يعلقونها ، يرون أنها تدفع عنهم الآفات . واعتقاد هذا الرأي جهل وضلالة ، إذ لا مانع إلا الله ، ولا دافع غيره . ذكره الخطابي[1] .

فالنهي عنها عند اعتقاد أنها تؤثر بنفسها ، فذلك شرك وبدون هذا الاعتقاد جهالة ، جاء في الحديث « من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علق ودعة فلا أودع الله له »[2] . وفي حديث آخر « من علق فقد أشرك »[3] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ليست التميمة ما يعلق به بعد البلاء ، إنما التميمة ما يعلق به قبل البلاء[4].

ويؤخذ من كلام المنذري أن التميمة خرزة ، وفي الحديث ذكر التميمة والودعة ، فهل هما شيء واحد؟ وإذا كان ذلك فلماذا التكرار والعطف يقتضي المغايرة ؟ وقد يجاب على ذلك بأن الودعة هي الخرزة الصدفية المعروفة التي تتكون في البحار ، والتميمة كل شيء يعلق من أية مادة تكون ، كقطعة خشب أو خرقة أو غيرهما مما يعتقد الجهلة منفعته . وتفسير عائشة يدل على أنها كانت للحفظ من الإصابة ودفع الشر ، وليست للاستشفاء من مرض واقع .

ومهما يكن من شيء فإن اعتقاد أن هذه الأشياء تؤثر بنفسها دون توقف على إرادة الله تعالى يتنافى مع الإيمان .

ومثل التمائم ما يعرف بالأحجبة ، وهي كتابات تعلق بقصد دفع الشر أو رفعه ، فإن كانت كلمات من القرآن الكريم أو ذكر الله تعالى ، مع اعتقاد أنها لا تؤثر إلا بإرادته سبحانه فلا يؤثر ذلك على الإيمان ، مع التنبيه على صيانة كلام الله تعالى من كل ما يخل بتوقيره ، ومع التوصية بطلب العلاج عند المختصين .

---

١ - الترغيب والترهيب : ج٤ ص ٩٦ .
٢ - رواه أحمد وأبو يعلي بإسناد جيد والحاكم وصححه .
٣ - رواه أحمد برواة ثقات .
٤ - رواه الحاكم وصححه .

وجاء في زاد المعاد لابن القيم [1] أن جماعة من السلف أجازوا كتابة شيء من القرآن ثم إذابته بالماء و التداوي به سقياً أو غسلاً ، روي ذلك عن مجاهد ومثله عن أبي قلابة ، ويذكر عن ابن عباس أنه أمر أن يكتب لامرأة يعسر عليها ولادها أثر من القرآن ثم يغسل ويسقى .

وجاء في « الفتاوى الإسلامية » [2] : اختلف العلماء في جواز كتابة بعض آيات من القرآن أو أسماء لتكون تمائم ، فقالت طائفة بجوازه ، ونسبوا هذا إلى عمرو ابن العاص وأبي جعفر الباقر ، رواية عن الإمام أحمد ، وقالت طائفة بمنعه لحديث أحمد « من علق تميمة . . . » وجزم كثير من العلماء بقول الطائفة الأخيرة ، لعموم هذا النص ، وَسدًّا للذريعة حتى لا يكبر الصغار وهم يعتقدون أن التمائم هي التي تشفي وتحفظ دون إرادة الله . ولا يحل لمسلم أن يأخذ أجراً على كتابة هذه الآيات ، وليس هناك حديث يقول « خذ من القرآن ما شئت لما شئت » .

ويراجع في ذلك تفسير القرطبي [3].

س : ما حكم الدين في العدوى ؟

ج : العدوى انتقال المرض من المصاب به إلى آخر ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، وكان العرب يعتقدون أن الجسم المريض يؤثر حتماً في الجسم السليم عند وجود الفرصة ، وذلك دون حساب أو تقرير لإرادة الله تعالى .

ولما كانت العدوى حقيقة واقعة لم ينكرها الإسلام ، وإنما أنكر الاعتقاد الشائع حولها ، ولهذا جاءت نصوص تثبتها كحقيقة طبية ، ونصوص تنفيها كمؤثر حتمي بعيد عن إرادة الله .

فمما جاء في إثباتها حديث « إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » ولما سمعه عمر بن الخطاب رضي الله

١- ج ٤ ص ١١٩ .
٢- ج ١٠ ص ٣٥٦٧ .
٣- ج ١٠ ص ٣١٨ .

عنه رجع من الشام . ولما قيل له : أفراراً من قدر الله قال ؟ : أفر من قدر الله إلى قدر الله[١]. وحديث « لايورد ممرض على مصح »[٢]. وحديث « فرَّ من المجذوم فرارك من الأسد »[٣]. وعدم مبايعة النبي ﷺ لرجل مجذوم كان في وفد ثقيف[٤] .

ومما جاء في نفي العدوى حديث « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر »[٥].

وحديث « فمن أعدى الأول »[٦] ؟ وذلك في معرض الحديث عن الإبل يدخل في وسطها بعير أجرب . وحديث : وضع النبي ﷺ يد مجذوم معه في الطعام وقوله : « كل باسم الله توكلاً على الله وثقة بالله »[٧].

وقد وضح ابن القيم هذا الموضوع في كتابه « زاد المعاد » وذكر أنه لاتعارض بين الأحاديث القوية ، فالإثبات على أنها سبب عادي ، والنفي يحمل على أنها لا تؤثر بنفسها .

والهامة : طائر يزعم العرب أن عظام الميت تصير طائراً يطير من قبره ينادي بأخذ الثأر له وتقول : اسقوني اسقوني ، فإذا أخذ بثأره سكتت .

والصفر : حية في البطن تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه كما كان يزعم العرب . وقيل : أراد بالصفر الشهر الذي كانوا يؤخرون به حرمة المحرم إلى صفر .

س : ما حكم الدين في الحسد بالعين ؟

ج : الحسد بالعين حقيقة ملموسة لا ينكرها أحد . وهي ظاهرة موجودة من قديم الزمان . وإن عجز بعض الناس عن تفسيرها تفسيراً علميًّا ، وقد صح عن

١- رواه البخاري .
٢- رواه مسلم .
٣- رواه البخاري تعليقاً.
٤- رواه مسلم .
٥- رواه البخاري .
٦- رواه أحمد والبيهقي والطبراني.
٧- رواه الترمذي وابن ماجه.

النبي ﷺ أنه قال : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين »[1] . وقد اتخذ النبي ﷺ لها إجراء وقائيًا وإجراء علاجيًا ، فقد ورد عن أبي سعيد أن النبي ﷺ كان يتعوذ من الجان وعين الإنسان . كما روى الترمذي وصححه أن أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله ، إن بني جعفر تصيبهم العين ، فأسترقي لهم؟ فقال: « نعم ، ولو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين » .

وجاء في مسند أبي داود عن عائشة قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين ، وروى مالك أن عامر بن ربيعة رأى سهل بن حنيف يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة . قال : فلَبِط سهل ، فأتى رسول الله ﷺ عامراً فتغيظ عليه وقال « علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، اغتسل له » فغسل له عامر وجهه ويده ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه داخلة إزاره في قدح ، ثم صب عليه ، فراح مع الناس . . .

وقد ذكر ابن القيم[2] ، عدة أحاديث في هذا الموضوع ، وعلق عليها بقوله : أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها . وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها .

وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ولا تنكره وإن اختلفوا في سببه ووجهة تأثير العين . ثم ذكر ابن القيم وجهات نظر مختلفة وتفسيرات لكيفية الإصابة بالعين ، منها قوله : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين ، فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك . وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن . ثم قال : وهو يلتقي مع قول النبي ﷺ في الأبتر وذي الطفيتين من الحيات

---

١ - رواه مسلم .
٢ - زاد المعاد ج ٣ ص ١١٦ .

أنهما يلتمسان البصر ويسقطان الحبل ويؤمن ابن القيم بذلك حتى قال : إن نفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى فيوصف له شيء فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره .

وذكر ابن القيم علاج الإصابة بالعين مستوحى من الأحاديث النبوية ، مع أدعية واردة تفيد في هذا الموضوع ، وأفاض في بيان تأثير العلاج النبوي بالاغتسال بالماء الذي اغتسل به العائن بما لا يدع مجالاً للشك في أهميته ، فارجع إليه إن شئت.

هذا ، والأبحاث النفسية الحديثة لا تنكر أثر العين ، بل أثر القوى الأخرى ، وهي تثبت صدق الرسول ﷺ في قوله ، وأثر الاستعاذة والتحصن في تقوية الروح لتدفع خطر العين .

س : ما موقف الإسلام من أقوال الفلكيين في أول كل سنة عن الأحداث التي ستحصل في الكون ؟

ج : من المعروف في العقائد أن المستقبل غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، كما قال سبحانه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام :٥٩] وقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان :٣٤] وقال ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن :٢٦ ، ٢٧].

وعلم الله يتميز بأمرين ، أولهما: الصدق واليقين بحيث لا يعتريه شك ، والثاني: الإحاطة والشمول فلا يغيب عن علمه شيء ، وكل ما ينشر عن الفلكيين أو غيرهم أكثره استنتاج وفراسة وظن وتخمين وبراعة في الربط بين حركات النجوم وتأثيرها على الجو حرارة وبرودة ورطوبة وجفافاً وعواصف وأمطاراً ، وما ينتج عن ذلك من رخاء أو قحط أو قلاقل وفتن نتيجة للحالة الاقتصادية وما تؤثر فيه من الناحية السياسية والحربية والاجتماعية وما إلى ذلك .

ولا شك أن الآثار والنتائج هي محصلة عدة عوامل يتفاعل بعضها مع بعض ، وتنتج بشكل طبيعي نتائج مختلفة يمكن إدراكها قبل وقوعها لمن عندهم فراسة وحسن تقدير وربط بين الأسباب والمسببات .

ومع ذلك فكله من باب الظنون التي لايقطع بها ، فقدرة الله وإرادته في تصريف هذه الأسباب وفي إنتاجها للمسببات فوق كل تدبير وتقدير وحساب من البشر ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ [النور :٤٣] .

وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الروم :٤٨ ، ٤٩] .

فالخلاصة أن هذه التنبؤات ظنية وليست قطعية ، ومن ادعى أنها قطعية فقد خالف قول الله في علمه للغيب ، وتعيين أشخاص يموتون أو يتولون مناصب أو يعزلون ، كل ذلك إفراط في التخمين يكذبه الواقع كثيراً ، ويبقى الأمر كله لله وحده ، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ [١] يقول الدميري (٧٤٢ - ٨٠٨هـ) في كتابه حياة الحيوان الكبرى : روي عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا » [٢] ، وقال «أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً ، حيف الأئمة والإيمان بالنجوم والتكذيب بالقدر» [٣] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدوا به في البحر والبر ثم أمسكوا .

ويبين الدميري سر النهي عن ذلك بعدم فتنة الناس بالنجوم ، حتى لايربطوا بينها وبين الأحداث فينسوا ربهم الذي خلق كل شيء ، وبأن نتائجها ظنية لايجوز

---

١ - انظر : مفتاح دار السعادة لابن القيم ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٨٢ - ٣٠٠ .
٢ - رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية ، وحسنه بعض أصحاب الأمالي عن ابن مسعود .
٣ - رواه ابن عبدالبر وابن عساكر وهو ضعيف .

الحكم بالظن ، وبأن الاشتغال بالنجوم من هذه الناحية فضول ليست فيه فائدة تذكر ، وهناك ما هو أهم منه . هكذا يقول الدميري ، وقال كثيراً غير ذلك [1]، وجاء في ذلك قول محمد بن عبدالله بن محمود الحسيني :

لاشيء أجهل ممن يدعي ثقـة ... بحدسه ويرى فيما يرى ريبـا

قد يجهل المرء ما في بيته نظـرا ... فكيف عنه بما في عينه احتجبا

وقول سيدنا علي ، أو يوسف بن عبد البر :

أمنتحلـى النجوم أحلتمونا ... علـى علـم أرق من الهبـاء

علوم الأرض ما أحكمتموها ... فكيف بكم إلى علم السمـاء

وأنا أقول : إذا كان الاشتغال بعلم النجوم من أجل معرفة أسرار الكون وحسن استخدامها كما يحصل الآن من الجهود في غزو الفضاء - كما يعبرون - فلا بأس به ، بل الدين يشجعه مادام ذلك من أجل الخير ، أما سوء هذا العلم أو ادعاء معرفة الغيب على وجه اليقين فذلك ضلال لا يوافق عليه الدين .

س : ما حكم الدين فيما ينشر في الصحف عن أبراج المواليد وتوقعات الأحداث لهم ؟

ج : هذه التوقعات ظنون تتخلف كثيراً ، والله وحده له العلم الشامل الكامل والصادق الدقيق ، كما قال سبحانه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان : ٣٤] .

وقد حذر النبي ﷺ من التصديق والتشجيع لهذه الوسائل الكاذبة لمعرفة المستقبل ، وتقدم الكلام كثيراً عن ذلك في عنوان «علم الغيب» .

وفي الحديث الذي رواه مسلم « من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً » والعراف كما قال البغوي : هو الذي يدَّعي معرفة الأمور

---

١ - حياة الحيوان الكبرى ، ج١ ص١٥ ، ١٦ مادة الأسد.

بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها ، وقيل : هو الكاهن الذي يخبر عن بعض المضمرات فيصيب بعضها ويخطئ أكثرها ويزعم أن الجن تخبره بذلك ، وقد جاء في الكاهن حديث «من أتى كاهناً فصدقه بما قال فقد كفر بما أُنزل على محمد»[1] ، والذي أنزل على محمد ﷺ هو حصر علم الغيب في الله تعالى .

وما ينشر في الصحف من الطوالع وحظوظ أصحابها يطلق عليه اسم التنجيم ، وجاء فيه حديث أبي داود وابن ماجه وغيرها «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد) قال الحافظ : والمنهي عنه من علم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمن كمجيء المطر وهبوب الريح وتغير الأسعار ونحو ذلك ، ويزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب واقترانها وافتراقها وظهورها في بعض الأزمان ، وهذا علم استأثر الله به ، لا يعلمه أحد غيره ، فأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم والذي يعرف به الزوال وجهة القبلة وكم مضى من الليل والنهار وكم بقي فإنه غير داخل في النهي .

قال العلماء : من صدَّق هذه الطوالع واعتقد أنها تضر وتنفع بدون إذن الله ، أو أن غير الله يعلم الغيب فهو كافر . ومن آمن بأنها ظنية ولم يعتقد أنها تضر وتنفع فهو مؤمن عاص ينقص ذلك من حسناته .

وفي ذلك يقول الحديث الذي رواه الطبراني «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أُنزل على محمد ، ومن أتاه غير مصدق له لم تُقبل منه صلاة أربعين ليلة » والمداومة على قراءة هذه الطوالع قد تجر إلى أنها اطلاع حقيقي على الغيب الخاص بالله تعالى ، وهو حرام .

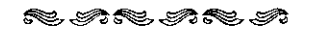

س : ما حكم الدين في السحر ؟

ج : يقول الله تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ

---

١ - رواه البزار بإسناد جيد قوي .

بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٠٢].

مادة السحر التي وردت في القرآن الكريم ستين مرة تعطي فيما تعطي من المعاني: الغرابة والخروج على المألوف بما يجذب الانتباه ويثير العجب، ومنه القول المأثور: إن من البيان لسحراً، وله أنواع وأساليب ذكرها الفخر الرازي في تفسيره.

وقد أشار القرآن الكريم إلى اشتهار المصريين القدماء به، وذكر موقفهم من دعوة موسى عليه السلام، ومعجزة العصا التي انقلبت حية وابتلعت حبال السحرة وعصيهم التي يخيل لمن يراها أنها تسعى، كما مارسته بابل القديمة حتى ضرب به المثل في كل جميل غريب فيقال: «سحر بابلي». وعرفه العرب قبل الإسلام، وما يزال معروفاً إلى الآن.

وتفيد الآية الكريمة المذكورة عدة أمور:

أ - أن السحر حقيقة تاريخية موجودة، بصرف النظر عن كونه تخييلاً يجعل الإنسان ينظر إلى الشيء على غير حقيقته، أو كونه يقلب الشيء عن حقيقته ويحوِّله إلى حقيقة أخرى، والذي يجب الإيمان به أن ما كان من انقلاب عصا موسى إلى حية ليس سحراً، وإنما هو معجزة من صنع الله تعالى، خرق بها العادة، وحول حقيقة العصا الجامدة إلى حية متحركة بقدرته سبحانه، ثم أعادها بقدرته أيضاً إلى حقيقتها الأولى.

وجاء تعبير القرآن الكريم عما فعله السحرة بقوله ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[الأعراف:١١٦] وقوله تعالى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾[طه:٦٦].

ب - أن للسحر تأثيراً بالنفع والضر ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾.

ج - أن تأثيره لا يكون إلا بإذن الله ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

د - أن السحر كفر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فما هو متعلق الكفر فيه ، هل هو تعليمه وتعلمه ، أو هو العمل به ، أو هو اعتقاد أنه يؤثر بنفسه دون تدخل إرادة الله ؟

حول هذه الأسئلة الثلاثة ثار الجدل واحتدم النقاش وتعددت الآراء وذلك مبسوط في كتب التفسير ، وعلى الأخص تفسير الفخر الرازي ، وفي كتاب الزواجر لابن حجر الهيتمي من علماء القرن العاشر ومن بين هذه الآراء يمكن اختيار ما يأتي:

١ - أن اعتقاد تأثيره بعيداً عن إرادة الله تعالى كفر ، وذلك محل اتفاق .

٢- أن ممارسته من أجل الإضرار بالناس حرام ، حتى مع اعتقاد أنه يؤثر بإذن الله ، فالإسلام لا ضرر فيه ولا ضرار .

٣ - أن ممارسته لتحقيق مصلحة مع اعتقاد أنه يؤثر بإذن الله لا حرمة فيها . قال القرطبي : هل يسأل الساحر حل السحر عن المسحور ؟ قال البخاري : عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه يجوز وإليه مال المارزي ، وكرهه الحسن البصري . وقال الشعبي : لا بأس بالنشرة ، وفسرت بالرقية لعلاج المسحور[1].

٤- أن تعلمه أو تعليمه يرجع فيه إلى المقصود منه ، فإن كان خيراً كمعرفة الفرق بينه وبين المعجزة -كما جاء في أمثلة العلماء- أو استعماله للمصلحة فلاحرمة فيه ، كنوع من الثقافة التي عبر عنها بعض الحكماء بقوله :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وإن كان المقصود من ذلك شرًّا فهو حرام ، فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

---

١ - الزواجر لابن حجر ج٢ ص١٠٤ .

وبهذا يفهم حديث البخاري ومسلم الذي جعل السحر من السبع الموبقات ، أي كبائر الذنوب ، والوسائل التي تستخدم في السحر يعرفها الممارسون له والخبراء به ، فقد تكون بالاستعانة بالجن ، وقد تكون بمعرفة خواص بعض الكائنات ، وقد تكون بالإيحاء والاستهواء ، وبغير ذلك ، فالوسائل إما من ذات الساحر ، وإما من غيره ، وهذا الغير إما كائن حي أو غير حي ، وقد ذكر الفخر الرازي منها ثمانية أنواع جاء فيها أنه قد يكون من أصحاب النفوس القوية بالتسلط على أصحاب النفوس الضعيفة ، وقد يكون بالاستعانة بالجن والعزائم والبخور ، وقد يكون بما يقال عنه الآن خفة اليد ، يلهي العين بعمل شيء ليعمل غيره ، وقد يكون بالفن والصنعة التي تخلب الألباب ، - ومنه حيل التصوير السينمائي - ، وقد يكون باستعمال أدوية لها خواص معينة كالتي يدهنون بها أجسادهم فلا تحرقهم النار . .

هذا ، وقد تحدث العلماء عن الحديث الذي ورد في البخاري ومسلم أن رجلاً من بني زريق حليف لليهود اسمه لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ ، فأثبته جماعة ، وقالوا : ذلك جائز ، فهو مرض من الأمراض التي تصيب الإنسان ، وهو لم يؤثر عليه من ناحية تبليغ الرسالة والتزام أحكامها ، وأولوا قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة :٦٧] بعصمة القلب والإيمان دون الجسد ، فقد شج وجهه وكسرت رباعيته وآذاه جماعة من قريش . والجصاص من أئمة الحنفية قد نفى أن يكون النبي ﷺ قد سحر ، على الرغم من صحة الحديث ، وذلك استناداً إلى الآية ، ولعدم فتح الباب للطعن فيما بلغه من الرسالة .

وقد وضح ابن القيم ذلك في كتابه : « زاد المعاد » كما وضحه النووي في شرح صحيح مسلم بما يثبت العصمة للنبي ﷺ في أمور التبليغ ، ويجيز تأثره بما يتأثر به الناس من الأمراض التي لا تخل بهذه العصمة .

وخلاصة ما في زاد المعاد [1] : قد أنكر هذا طائفة من الناس وقالوا لايجوز هذا عليه وظنوه نقصاً وعيباً ، وليس الأمر كما زعموا ، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ

١- ج٣ ص ١٠٤.

من الأسقام والأوجاع ، وهو مرض من الأمراض ، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سحر رسول الله ﷺ حتى إن كان ليخيل إليه أنه يأتي نساءه ولم يأتهن ، وذلك أشد ما يكون من السحر ، قال القاضي عياض : والسحر مرض من الأمراض ، وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولايقدح في نبوته ، وأما كونه يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من صدقه ، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هذا فيما يجوز طروؤه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث لسببها ولا فضل من أجلها ، وهو فيها عرض للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أنه يخيل إليه من أمورها ما لاحقيقة له ، ثم ينجلي عنه كما كان . اهـ . هذا ، وقد تأثر موسى عليه السلام بما فعله السحرة ، فقال تعالى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه :٦٦ ، ٦٧] وليس ذلك قادحاً في رسالته عليه السلام [1] .

س : توصل بعض العلماء إلى إنزال مطر صناعي ، فهل يتنافى ذلك مع قول الله تعالى «وينزل الغيث» ؟

ج : كلنا يعلم أن تكاثف بخار الماء الموجود في السحاب أو في الجو عامة يحدث لعوامل ، فينزل المطر أو الندى ، وليس في ذلك مشاركة لقوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان :٣٤] لأن تكوُّن السحاب وامتلاء الجو ببخار الماء على هذا النطاق الواسع هو صنع الله بالوسائط الذي خلقها ، فهو الخالق للبخار ولحرارة الشمس والمتحكم في برودة الجو ، وكذلك في الرياح وسوقها للسحاب

---

١ - من أراد الاستزادة فليرجع إلى :
١ - تفسير الفخر الرازي وابن كثير والقرطبي في سورة البقرة والمعوذتين .
٢ - زاد المعاد لابن القيم .
٣ - مفتاح دار السعادة لابن القيم .
٤ - حياة الحيوان الكبرى للدميري ((مادة كلب)) ..

وبقدرته أن يتحكم فيها فلا تنتج أثراً ، كما قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ [لقمان :٤٣] .

إن العمليات التي يحاول بها بعض الناس إسقاط المطر من السحاب لها نظائر في نطاق ضيق ، في عمليات فصل الملح عن الماء ليصير عذباً ، فهي تدور على التبخير والتكثيف ، كما يحدث في الأنبيق الذي تستخرج به العطور ، وليس عملهم هذا تدخلاً في صنع الله ، بل هو تصرف واستخدام للمادة التي خلقها الله ، ولا يمكن لأحد أن يخلق الحرارة أو البرودة أو الماء بوسائط أو مواد غير ما أوجده الله في الكون .

ومع ذلك فالمحاولات لا تغني ، لأن كثيراً من بلاد هؤلاء العلماء تشكو الجفاف وقلة الماء وهلاك الزرع والحيوان ، فلو أمكنهم التحكم في المطر والماء والريح كما يتحكم الله ليغاثوا من القحط ما سكتوا ، فقدرة الله فوق قدرتهم ، وإرادة الله فوق إرادتهم ، كما أن مداواة المريض بمواد خلقها الله لا تبرر إسناد الشفاء الحقيقي إلى غير الله .

وإلى جانب عجزهم عن الإغاثة من القحط ، عجزوا عن دفع ما يقع من العواصف والصواعق والسيول والزلازل والبراكين على بلاد المتحضرين المزهوين بعلومهم واختراعاتهم ، كل ذلك يزيدنا إيماناً بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [فاطر :١٥-١٧] .

س : ما الفرق بين التوكل والتواكل ؟

ج : حقيقة التوكل من الصعب تعريفها كما تُعَّرف الأمور الأخرى بماهياتها ، وإنما يعرف التوكل بآثاره . كما قال العلماء في التيار الكهربائي ، وقد قال الإمام

الغزالي – وهو الفيلسوف الصوفي الفقيه الأصولي في حديث التوكل : إنه غامض من حيث العلم . ثم هو شاهد من حيث العمل ، ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد ، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع ، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباب تغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل ، وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق مع مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سماسرة العلماء .

وقد أطال الغزالي في توضيح ذلك ، ولكن بعبارة بسيطة يمكن أن أقول : إن التوكل هو الإيمان بأن الله سبحانه هو الواحد المتفرد بالخلق ، ومنه كل النعم ، وإليه المرجع والمصير ، مع إظهار مسحة هذا الإيمان على السلوك في القول والعمل ، وامتثال أمر الله والسير على منهجه الذي أوحى به إلى الرسل .

ولو طبقنا هذا المعنى في طلب الرزق مثلاً فلابد في التوكل من الإيمان بأن السعي والجد في العمل وحده لايمكن أن يوصل إلى النتيجة إلا بإرادة الله سبحانه ، فقد يكون هناك سعي وجد وعمل ولايكون من وراء ذلك تحقيق ما يريده الإنسان ، فلابد من الأمرين : الأخذ في الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله سبحانه وإنفراد واحد منهما عن الآخر خطأ . فالأخذ بالأسباب دون التفويض لله يناقض الإيمان ، وربما لا يوصل إلى المطلوب ، والتفويض لله فقط دون الأخذ بالأسباب تعطيل لقانون الله وعدم امتثال لأمره بالسعي والعمل ، وهذا ما يعرف بالتواكل .
وعلى ضوء ذلك من يقتصر على الإيمان بقوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] . دون تنفيذ لقوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك : ١٥] يكون مخطئاً ويطلق عليه اسم المتواكل ، يوضح ذلك ما حدث أن رجلاً ترك ناقته على باب المسجد النبوي وقال للرسول ﷺ هل أتركها بدون عقل – قيد – وأتوكل على الله ليحفظها أو أعقلها – أقيدها بالعقال ؟ فقال له «قيدها وتوكل»[1].

---

١ – رواه ابن خزيمة والطبراني بإسناد جيد .

وقد يوضح هذا أيضاً قول النبي ﷺ « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » [1] فالطير تبارح الأعشاش لتطلب رزقها ولا تنتظر وتفتح أفواهها لينزل لها الرزق من السماء وهي راقدة في الأعشاش.

يقول أبو الفتوح الرازي [2] :

توكل على الرحمن في كل حاجة ... ولا تتركن الجد في شدة الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزي إليك الجذع يسَّاقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كل شيء له سبب [3]

والموضوع طويل يراجع في «إحياء علوم الدين» [4].

س : إنسان تواكل على الله في أمر ما ولم يأخذ بما يكفي من الأسباب لكنه دعا الله بكل ما يعرف من أدعية مستجابة ليقضي الله له أمره ، لكن الله لم يوفقه في ذلك على الرغم من دعائه فلماذا ؟

ج : التوكل على الله لا يفيد إلا بعد اتخاذ الأسباب ، وبدون ذلك يكون تواكلاً وهو مذموم ، ويشير إليه قول عمر : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

والذي لا يتخذ الأسباب لا يقبل دعاؤه ، والرسول نفسه نبه بعض الصحابة إلى ذلك حيث طلب واحد منهم مرافقته في الجنة ، فقال له : «فأعنِّي على ذلك بكثرة السجود» أي الصلاة .

١- رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .
٢- الواعظ المفسر الفارسي المولود بالري في أواخر القرن الخامس الهجري .
٣- مجلة الإخاء العدد ١٩٣ في إبريل ١٩٧١م بقلم محمد علي رزم آشين .
٤- للإمام الغزالي ، ج٤ ص ٢١٠ .

مع العلم بأن الدعاء لا يقبل إلا بشروط ، منها طاعة الداعي لله وعدم عصيانه ، والتعفف عن أكل الحرام ، وكون الدعاء بخشوع وحضور الذهن والقلب ، على نسق ما جاء في قبول الله دعاء أيوب وذي النون وزكريا ، حيث قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء :٩٠] وعدم الاستعجال حيث يقول : دعوت فلم يستجب لي.

وعلى فرض أن الداعي فيه هذه المواصفات ، فإن الاستجابة تكون بصور مختلفة ، إعطاء الداعي ما سأله أو صرف سوء عنه يكون أحسن من نيل المطلوب أو ادخار الإجابة إلى الآخرة فهي أفضل من الدنيا .

والله يختار ما هو خير للداعي المؤمن المطيع الخاشع ، فقد يكون منع الإجابة أفضل ، قال تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى :٢٧] وفي المأثور : «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر» .

وقد يكون عدم الاستجابة امتحاناً لإيمان الإنسان ، هل يرضى بقضاء الله ويصبر على البلاء الذي يشكو منه ، أو يجزع ويعترض ، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة :١٥٥-١٥٧].

س : يقول بعض الناس : إن أحسن صيغة لحمد الله هي : الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ، فهل هذا صحيح ؟

ج : الحمد في اللغة هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتسجيل ، وهو في العرف يدل على تعظيم المنعم من حيث إنه منعم على الحامد وغيره ، والشكر في اللغة هو الحمد العرفي ، وفي العرف هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله ، فبين الحمد اللغوي والعرفي عموم

وخصوص من وجه ، فيجتمعان فيما إذا كان باللسان في مقابل نعمة ، وينفرد اللغوي فيما إذا كان باللسان لا في مقابل نعمة ، وينفرد العرفي بصدقه بغير اللسان في مقابلة نعمة ، فمورد الحمد العرفي أعم وهو اللسان والأركان أي الجوارح ، ومتعلقه أخص وهو كونه في مقابلة نعمة - والحمد اللغوي عكسه ، والحمد اللغوي مع الشكر اللغوي كذلك ، إذ الشكر اللغوي هو الحمد العرفي كما علم .

إن حمد الله وشكره باللسان يحصل بأية صيغة ، وهو مندوب إليه ، وجاءت في فضله أحاديث منها : ما رواه أصحاب السنن عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه قال: صليت خلف رسول الله ﷺ فعطست فقلت : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى فلما صلى رسول الله ﷺ قال : « من المتكلم في الصلاة ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قالها الثانية « من المتكلم في الصلاة » ؟ فقال رفاعة ابن رافع : أنا يا رسول الله ، قال « كيف قلت؟ » قال : قلت : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، فقال « والذي نفسي بيده لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعدها »[1] . وفي رواية أبي داود أن الرسول قال له « ما تناهت دون عرش الرحمن جل ذكره » وفي مسند أحمد أن الرسول قال له « لقد فتحت لها أبواب السماء فلم ينهها شيء دون العرش » .

يقول السفاريني [2] ، إن بعض الناس ذكر أن أفضل صيغ الحمد : الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده . وأن ابن القيم أنكر على قائله غاية الإنكار لأنه لم يرد في الصحاح ولا السنن ولا يعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة ولا له إسناد معروف ، وإنما يروى عن أبي نصر التمار عن سيدنا آدم أبي البشر عليه الصلاة والسلام ، قال : ولا يدري كم بين آدم وأبي نصر إلا الله تعالى . قال أبو نصر : قال آدم : يا رب شغلتني بكسب يدي ، فعلمني شيئاً من مجامع الحمد والتسبيح ، فأوحى الله إليه : يا آدم ، إذا أصبحت فقل ثلاثاً ، وإذا أمسيت

---

١ - قال الترمذي : حديث حسن .
٢ - غذاء الألباب ج١ ص ١١ .

فقل ثلاثاً « الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده » فذلك مجامع الحمد والتسبيح . قال ابن القيم : فهذا لو رواه أبو نصر التمار عن سيدنا آدم ﷺ لما قبلت روايته ، لانقطاع الحديث فيما بينه وبين رسول الله ﷺ ، فكيف بروايته له عن آدم .

قال : وبنى على ذلك بعض الناس مسألة فقهية فقال : لو حلف إنسان ليحمد الله تعالى بمجامع الحمد وأجل المحامد فطريقه في بِرِّ يمينه أن يقول الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده .

وردَّ هذا بما يطول ، والحاصل أن العبد لا يحصى ثناء على ربه ولو اجتهد في الثناء طول عمره .

ثم ذكر أن الإمام أحمد بن حنبل روى في الزهد عن الحسن قال : قال داود : إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر كله ما قضيت حق نعمة واحدة . وروى فيه أيضاً عن المغيرة بن عتبة قال : لما أنزل الله على داود ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ :١٣] قال : يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليَّ ترزقني على النعمة الشكر ثم تزيدني نعمة بعد نعمة ، فالنعمة منك يا رب فكيف أطيق شكرك ؟ قال : الآن عرفتني يا داود .

س : لماذا خلق الله الدنيا ؟

ج : الدنيا جزء من العالم الذي خلقه الله ، والعالم كل ما سوى الله من حيوان ونبات وجماد ، وملائكة وأرواح وجنة ونار ، وغير ذلك وهذا الخلق أثر من آثار صفاته التي تحقق له الألوهية ، خلقه بقدرته وبإرادته وأبدعه بعلمه وبحكمته ، وبسط سلطانه عليه بالأمر والنهي والثواب والعقاب . ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء :٢٣] .

والدنيا هي الحياة الأولى قبل الحياة الآخرة ، وهي حياة فانية كما قال سبحانه عندما أهبط آدم إلى الأرض ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف :٢٤] وهي دنيا في المكانة والمنزلة بالنسبة للأخرى التي فيها النعيم الدائم الخالد للمؤمنين ، والعذاب الدائم الخالد للكافرين . ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء :٧٧] والدنيا مزرعة للآخرة ، وهي دار تكليف يجازى على العمل فيها بالثواب والعقاب ، وهي ليست مذمومة على كل حال إلا فيما نهى الله عنه كما في الحديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم »[1].

وفي كلام الإمام علي : « الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ، مسجد أنبياء الله ومهبط وحيه ومصلَّى ملائكته ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة »[2].

هذا بعض تفسير للسر في خلق الله للدنيا ، وهو سبحانه أعلم بالحقيقة ولامعنى للانشغال بذلك فالمهم هو العمل الصالح فيها لنسعد به في حياتنا الآخرة التي هي المصير الحتمي لكل من يعيش في هذا العالم .

س : ما رأي الدين في النظرية التي تقول : إن الإنسان أصله قرد ترقَّى وتطور حتى صار على الشكل الذي نعرفه الآن؟

ج : في القرن التاسع عشر الميلادي ، الذي ظهرت فيه نزعة الثورة على الكنيسة والأفكار والآراء الدينية السائدة ، برز جماعة منهم « لا مارك » الفرنسي المتوفى سنة ١٨٢٩ م « واغوست ايرينوس » المتوفى سنة ١٩٢٧م و « تشارلس دارون » الإنجليزي المتوفى سنة ١٨٨٢ م والذي أثار ضجة في العالم عندما ظهر كتابه «أصل الأنواع» سنة ١٨٥٩م وكتابه « تسلسل الأنواع » سنة ١٨٧١م ، وهو يشتمل على ثلاث مسائل :

---

١ - رواه الترمذي وغيره وقال حسن صحيح.
٢ - انظر المحاسن والمساوئ للبيهقي ج ٢ ص ٤٤ .

أ- أن طريق حدوث تنوعات العالم هو النشوء ، أي أن أجزاء الأثير تكون منها السديم ثم الشمس ، ثم انفصلت عنها الكواكب ، ومنه أرضنا ، ثم تكونت العناصر ثم المعادن ثم المكون الأول الحي « البروتوبلازم » الذي أخذ في التوالد والترقي حتى بلغ أدنى نبات أو حيوان ، ولم يزل هذان يترقيان بالنواميس الأربعة « التباينات ، الوراثة ، تنازع البقاء ، الانتخاب الطبيعي » ويشتق من الأنواع أنواع حتى تكونت جميع الأنواع التي نراها اليوم .

ب- أن الإنسان ما هو إلا حيوان من جملة الحيوانات ، حادث بطريق النشوء والارتقاء ، وأنه لمشابهته القرد لا يمنع أن يكون قد اشتق هو وإياه من أصل واحد .

ج- أن الحياة وعقل الإنسان ما هما إلا ظاهرتان من ظواهر تفاعل أجزاء المادة ، وإن يكن أصل المادة خالياً من الحياة والإدراك ، وأن عقل الإنسان لايختلف عن عقول الحيوانات إلا بالكم ، ولا يخالفها في الذات والحقيقة .

إن هذه الدعاوي لم يستطع « دارون » ومن ساروا في ركابه أن يبرهنوا عليها بالأدلة الكافية ، فهي ما تزال افتراضات قابلة للصدق والكذب ، وأكثر اعتمادهم في ذلك على تطوير نوع من الزهور والنباتات ، غيَّروا شكلها ولم يغيروا جوهرها ، ولم ينجحوا في شيء من عالم الحيوان ، ولكنهم قالوا : يجوز أن يكون الإنسان متطوراً عن حيوان قبله وهو القرد .

ويشرح (لا مارك) ذلك بقوله :إن الكائن الحي يشعر من تغير الأحوال عليه بضرورة حدوث عضو جديد له ، فيفعل للحصول على ذلك ، فيحدث في آحاده يسيراً يسيراً ، كالزرافة ، فقد كان في زعمه - كسائر الحيوانات - ذات عنق قصير ، ولكنها لما احتاجت إلى أكل الأشجار العالية صارت تتفعل لذلك وتشرئب لتنال الورق العالي ، فطالت عنقها يسيراً يسيراً ، حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن ، فالحاجة هي التي تنشئ الأعضاء الجديدة عند لا مارك ولكن دارون يقول : إن الصدفة أو الاتفاق هو الذي ينشئها .

لقد قام جماعة من المفكرين بالرد على نظرية دارون فقال « س . فان هو فنسفيلت » إن النتائج التي وصل إليها الباحثون في الأحياء المتحجرة لم تساعد على إقامة أي دليل على التسلسل أو التطور التدريجي بل ثبت على عكس ذلك أن الفروق الدقيقة بين صفوف الأجناس التي نعرفها بقيت على الدوام فاغرة ولم تتلاش أو تقرب من ذلك .

وقال « جوستاف جوليه » الأستاذ في السوربون : إن العقبات التي يرتطم بها مذهب النشوء والارتقاء تنحصر في خمسة أمور :

أ - أن العوامل التي يقوم عليها هذا المذهب قد ظهر عجزها في تعليل أصل الأنواع.

ب - تبين عدم كفايتها لتعليل وجود الحشرات .

ج - تبين عدم غنائها في تفسير التحولات الفجائية المولدة لأنواع جديدة .

د - اتضح قصورها عن تعليل تولد طبائع الأنواع الجديدة وثبوتها نهائيًا ، وقد ثبت أنها متى تولدت فيها بسرعة تبقى لا تتغير .

هـ - ثبت عجزها عن تفسير عوامل التطور الذي تدخل فيه الكائنات فتحولها من حالة ساذجة إلى حالة مركبة ، وتدفعها من النقص إلى الكمال .

هذه هي نظرية دارون الافتراضية : وذلك بعض ما ردَّها به علماؤهم ، أما رأي الدين فيها فيتضح مما يلي :

١- قولهم إن المخلوقات خلقت عشوائيًّا بغير تدبير سابق وعلم محكم يرده قول الله سبحانه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر :٤٩] وقوله ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر :١٩] .

٢- قولهم إن الإنسان ليس له خالق ، يرده قول الله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل :٤] وقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ

نَفْسُهُۥ ﴾ [ق :١٦] وقوله ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان :١١] وغير ذلك من الآيات الكثيرة .

٣- قولهم إن البقاء للأقوى والكوارث هي سبب هلاك المخلوقات الضعيفة ، مردود بأن الله يهلك الأقوياء كما يهلك الضعفاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران :١٠] ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران :١٢] .

٤- ادِّعاؤهم معرفة كيف نشأت الأحياء على الأرض ، يرده قول الله تعالى : ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف :٥١] .

٥- ادعاؤهم أن الطيور والحشرات لا تفهم يرده قول الله سبحانه ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل :١٦] .

٦ - ادعاؤهم أن الطير أقل تطوراً من الثدييات والإنسان يرده قول الله تعالى ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة :٣١] .

٧- زعمهم أن الإنسان متطور عن كائنات حية سابقة يرده قول الله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن :١-٤] وقوله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن :١٤] وحديث « إن الله خلق آدم على صورته » رواه البخاري ومسلم .

٨- ادعاؤهم أن القرآن يقر نظرية التطور ، كقوله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح :١٤] مردود بأن الأطوار في الآية ليست التطور الذي يزعمون فالمعنى أن الإنسان خلق على النحو الذي قال فيه رب العزة ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون :١٢-١٤] .

٩ - قولهم إن الموت يأتي صدفة للضعيف ويترك القوي ليتطور ، يرده قول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك :٢] وقوله ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة :٢٨] .

هذا بعض ما تفند به نظرية دارون [١] .

س : ما حساب الذين ماتوا قبل الإسلام ، هي يدخلون الجنة أم يدخلون النار؟

ج : أهل الفترة هم الذين لم يروا نبيًّا سابقاً ولانبيًّا لاحقاً ، عاشوا وماتوا في فترة ليس فيها نبي ، ومنهم العرب الذين ماتوا قبل بعثة النبي ﷺ حيث لم يأتهم نبي بعد إسماعيل فمن آمن من هؤلاء بالرسل الذين أرسلوا إليهم فهم في الجنة ، ومن لم يؤمن فهو في النار ، وهناك جماعة لم تبلغهم دعوة أي نبي من الأنبياء ، وقد اختلف فيهم العلماء ، فقال بعضهم ، كان الواجب عليهم أن يعرفوا ربهم بعقولهم عن طريق النظر في مخلوقاته ليؤمنوا به ، فمن توصل منه إلى معرفته وآمن به نجا ، ومن لم يفعل ذلك فهو في النار .

وقال آخرون : لا يكلف هؤلاء بالإيمان إلا بحسب شرع يأتي إليهم ، فإذا لم يجئ فلا مسئولية عليهم ، قال تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء :١٥] .

وحجة كل فريق مبسوطة في الكتب المتخصصة [٢] .

ومهما يكن من شيء فإن معرفة ذلك ليست فرضاً علينا ، وليست عقيدة نسأل عنها ، والبحث شهوة عقلية لا تغير من واقع هؤلاء الناس شيئاً ، فربهم أعلم بهم وقد أفضوا إليه بما قدموا .

---

١ - يمكن الرجوع إلى مجلة الأزهر ، المجلد الثاني ص ٧٤٩ ، وكتابي دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة ومجلة الهداية التي تصدر في البحرين عدد مارس ١٩٩٣م ، وكتاب الجواب الإلهي أو الإسلام أمام العلم والفلسفة للشيخ نديم الجسر .

٢ - راجع كتاب : الملل والنحل للشهرستاني ، المواهب للقسطلاني مع شرح الزرقاني ، وسترى الحديث عن أبوي النبي ﷺ له نصيب كبير من البحث .

س : أ - ما حكم الذي ينشأ في مجتمع كافر ولـم تبلغه الدعـوة الإسلاميـة ، ولم يسمع عن شيء اسمه الإسلام ، أو بلغه الإسلام ولكن بصورة مشوهة ثم مات ولم يسلم؟

ب - ما حكم الذي يعيش في مجتمع مسلم ، ولكنه لا يعمل بالإسلام ، أو يعمل بخلاف ما يريده الإسلام من الاعتقادات ، وذلك عن جهل ولـم يجد من يعرِّفه الإسلام الصحيح ، وما حكم إرثه ؟

ج : لقد تحدث العلماء عمن لم تبلغهم الدعوة وعن الذين لم يدركوا نبيًّا سابقـاً أو لاحقاً وهم أهل الفترة ، وأطنب في بيان حكمهم كثيرون من العلماء كإمام الحرمين في البرهان والغزالي في المستصفى والمنخول والرازي في المحصول والباقلاني في التقريب وغيرهم .

وتناول حكمهم رجال الفقه والأصول والكلام ، بناء على القاعدة الأساسية في الحسن والقبح هل هما عقليان أم شرعيان ، كما تحدثوا عن المؤاخذة وعدمها هل هي في الدنيا فقط أم الدنيا والآخرة إلى آخر ما تحدثوا فيه . ومما استشهدوا به قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء :١٥] أي أن الله لايهلك أمـة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم ، كما قال الجمهور ، وقالت فرقة : هذا عامٌّ في الدنيا والآخرة لقوله تعالى : ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك :٨ ، ٩] .

وورد في أهل الفترة أحاديث في أنهم موقوفون إلى أن يمتحنوا يوم القيامة ، والصحيح من هذه الأحاديث ثلاثة .

إن الذي لم تبلغه الدعوة في عصرنا هذا أمثال سكان الكهوف والأدغال والجزر النائية الذين لا يعرفون وسائل الاتصال بالعالم من حولهم ، وهم قلة في هذا الزمان الذي كثرت فيه وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية وغيرها ، وكثرت الرحلات وتنافس الاستعمار في استغلال مناطق الأرض .

ومن سمع بأن هناك رسولاً جاء بدين اسمه الإسلام وجب عليه أن يبحث عنه إن استطاع ، فإن لم يسمع أو سمع ولم يستطع البحث كان معذوراً كما قال العلماء .

وقد اشترط العلماء في لزوم الدعوة لمن بلغتهم أن تبلغهم صحيحة غير مشوهة ، فإذا وصلت مشوهة كانوا معذورين في عدم الإيمان بها ، وقد نص على ذلك الإمام الغزالي في كتابه « فيصل التفرقة » فبعد أن ذكر أن أكثر النصارى من الروم والترك في زمانه ناجون لعدم بلوغ الدعوة إليهم ، قال : بل أقول :حتى الذين بلغتهم دعوة الرسول ﷺ مشوهة فعلمهم أهلوهم منذ الصبا أن كذاباً مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة كذباً فهؤلاء عندي كالصنف الأول ، أي ناجون ، وأما سائر الأمم الذين كذبوا الرسول ﷺ بعد علمهم بالتواتر ظهوره وصفاته ومعجزاته الخارقة ، وعلى رأسها القرآن ، وأعرضوا عنه ولم ينظروا فيما جاء فيه فهم كفار . ا.هـ ملخصاً .

وعلى هذا نقول : إن من لم تبلغه الدعوة أصلاً ، أو بلغته مشوهة أو بلغته صحيحة ولم يقصر في البحث والتحري فهو معذور ، أي يرجى له عدم الخلود في النار .

أما المسلم الذي يعيش بين المسلمين ولايعمل بالإسلام لجهله فله حالتان :

الأولى : جهله بالعقيدة كوحدانية الله والبعث ، أو جهله بما يعلم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والصوم وحرمة القتل والخمر ، وهذا لا يعذر في جهله ، فلو ترك شيئاً مما وجب عليه أو ارتكب محرماً إن كان منكراً جاحداً فهو كافر ، وإن كان غير منكر ولكنه متكاسل مثلاً فهو غير كافر ، بل مؤمن عاص .

ومن حكم بكفره انقطع التوارث بينه وبين غيره من المسلمين إذا مات على ذلك ، أما العاصي فإن تاب ترجى له المغفرة ، وإن مات ولم يتب فأمره مفوض إلى ربه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء :٤٨] .

أما من قصر في غير ما علم من الدين بالضرورة لجهله به ، وذلك كالمسائل الفرعية في الفقه وبخاصة الدقيقة منها فهو معذور ، وعليه أن يسعى ليتعلم .

والحاصل أن الجهل نوعان : جهل لا يعذر به المسلم الذي نشأ في مجتمع مسلم ، وجهل يعذر به ، الأول كالجهل بالأركان الأساسية للدين ، والثاني كالجهل بالفروع التي تكون محلًّا لاختلاف الآراء ، ومنكر الأمور الأساسية كافر ، والمقصر فيها دون إنكار مؤمن عاص ، ومنكر الأمور الثانية أو المقصر فيها معذور . والله أعلم .

obeikandl.com